الاستشراق ودوافعه

إعداد الدكتور

سعيد عبد الجواد أبو زيد

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

جامعة الأزهر

ملخص البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

فإنَّ ممَّا ينبغي للمسلم إدراكه في الحياة العدوَّ الذي يتربص به وبدينه من كل جانبٍ، ويحاول أن ينقضَّ عليه؛ لاستئصاله، وانتزاع عقيدته من واقع حياته. وهذا العدو يظهر بأشكالٍ كثيرةٍ ومتنوعةٍ، ولعلَّ أخطر تلك الأشكال ما يسمى بالاستشراق؛ فإنه عدوٌ خطيرٌ بكل أدواته ووسائله؛ لأنه يحارب بالشبهة من خلال بعض ما يتوافر لديه من أحداثٍ تاريخيةٍ، أو رواياتٍ غير صحيحةٍ، ولكنه يضعها في ثوبٍ يثير الانتباه، ويشكِّك الضعفاء من أبناء الأمة في أمر دينهم، وتاريخهم، وهذا العدو خطير؛ لأنه مدعوم بأشياء كثيرةٍ، ومن أطراف متعددةٍ، وقد وضع الاستشراق والمستشرقون أمامهم عدة أهداف؛ من أجل الوصول إلى تحقيقها، وهذه الأهداف كثيرةٌ ومتفاوتةٌ من حيث الأهمية بالنسبة لهم، وبادر هؤلاء المستشرقون إلى الطعن في أركان هذا الدين ومصادره الأصلية التي هي مصدر الأحكام والتشريعات، بل وفي تراث الأمة وتاريخها وحضارتها.

ولمَّا كان لهذا الموضوع من الأهمية بمكانٍ فقد أحسنت **(كلية اللغة العربية بالزقازيق- جامعة الأزهر الشريف)** بتخصيص مؤتمرها الدولي الرابع لمعالجة موضوع (المستشرقون والتراث العربي والإسلامي) ودوافع المستشرقين حول دراسة التاريخ العربي والإسلامي أحد محاور هذا المؤتمر، وقد جاء هذا البحث مشاركةً متواضعةً، وهو بعنوان «الاستشراق ودوافعه».

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثين، وخاتمةٍ، وفهرس، فتناولتُ في المقدمة أهمية الموضوع والدوافع التي دفعتني للكتابة فيه. **وأمَّا التمهيد:** فقد تكلَّمت فيه عن مفهوم الاستشراق وتعريفه. **أمَّا المبحث الأول:** فتناولتُ فيه تاريخ الاستشراق، ونشأته، وبدايته، وارتباط نشأته ببداية الإسلام، وإن لم يكن قد تسمَّى بهذا المسمَّى، وتطور الاستشراق فيما بعد وصلته بالتبشير والاستعمار. **أمَّا المبحث الثاني:** فتناولتُ فيه دوافع المستشرقين وأهدافهم التي حَدَتْ بهم إلى دراسة التاريخ العربي والإسلامي، وكان من أهمها الدافع الديني والذي يُعَدُّ هو الأساس من وراء ظهور الاستشراق، ثمَّ تعرضتُ الدوافع الأخرى المعاونة والمساعدة وهي: الدافع الاستعماري، والاقتصادي، والسياسي، والثقافي العلمي.

ثمَّ كانت الخاتمة أشرتُ فيها لأهم النتائج، وثبت لأهم المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

دكتور
سعيد عبد الجواد أبو زيد

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

فإنَّ ممَّا ينبغي للمسلم إدراكه في الحياة العدوَّ الذي يتربص به وبدينه من كل جانبٍ، ويحاول أن ينقضَّ عليه؛ لاستئصاله، وانتزاع عقيدته من واقع حياته. وهذا العدو يظهر بأشكالٍ كثيرةٍ ومتنوعةٍ، ولعلَّ أخطر تلك الأشكال ما يسمى بالاستشراق؛ فإنه عدوٌ خطيرٌ بكل أدواته ووسائله؛ لأنه يحارب بالشبهة من خلال بعض ما يتوافر لديه من أحداثٍ تاريخيةٍ، أو رواياتٍ غير صحيحةٍ، ولكنه يضعها في ثوبٍ يثير الانتباه، ويشكِّك الضعفاء من أبناء الأمة في أمر دينهم، وتاريخهم، وهذا العدو خطير؛ لأنه مدعوم بأشياء كثيرةٍ، ومن أطراف متعددةٍ، وقد وضع الاستشراق والمستشرقون أمامهم عدة أهداف؛ من أجل الوصول إلى تحقيقها، وهذه الأهداف كثيرةٌ ومتفاوتةٌ من حيث الأهمية بالنسبة لهم، وبادر هؤلاء المستشرقون إلى الطعن في أركان هذا الدين ومصادره الأصلية التي هي مصدر الأحكام والتشريعات.

وقد أحسنت **(كلية اللغة العربية بالزقازيق- جامعة الأزهر)** بتخصيص مؤتمرها الدولي الرابع لمعالجة موضوع (المستشرقون والتراث العربي والإسلامي) ودوافع المستشرقين حول دراسة التاريخ العربي والإسلامي أحد محاور هذا المؤتمر، وقد جاء هذا البحث مشاركةً متواضعةً، وهو بعنوان «الاستشراق ودوافعه».

وكانت من أهمِّ المراجع التي تناولت موضوع البحث:

١- **علي حسني الخربوطلي**، المستشرقون والتاريخ الإسلامي- القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (سلسلة تاريخ المصريين ١٥)، ١٩٨٨م.

٢- **مازن بن صلاح مطبقاني**، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦هـ= ١٩٩٥م.

٣- **محمود حمدي زقزوق**: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط: ٢- القاهرة، دار المنار، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م.

٤- **عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي**، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير- الاستشراق- الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه (دراسة منهجية شاملة للغزو الفكري)، دار القلم- دمشق، الطبعة الثامنة، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثين، وخاتمةٍ، وفهرس للموضوعات، فتناولتُ في المقدمة أهمية الموضوع والدوافع التي دفعتني للكتابة فيه، وأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في تناول هذا الموضوع.

أمَّا التمهيد: فقد تكلَّمت فيه عن مفهوم الاستشراق وتعريفه.

أمَّا المبحث الأول: فتناولتُ فيه تاريخ الاستشراق، ونشأته، وبدايته، وارتباط نشأته ببداية الإسلام، وإن لم يكن قد تسمَّى بهذا المسمَّى، وتطور الاستشراق فيما بعد وصلته بالحروب الصليبية، وتعاونه مع قادة الاستعمار الغربي.

أمَّا المبحث الثاني: فتناولتُ فيه دوافع المستشرقين وأهدافهم التي حَدَتْ بهم إلى دراسة التاريخ العربي والإسلامي، فقد استعرضت لأهم هذه الدوافع وكان على رأسها الدافع الديني والذي يُعَدُّ هو الأساس من وراء ظهور الاستشراق، فكان هؤلاء حريصين كل الحرص على تشويه صورة الإسلام، وتراثه الفكري، وتاريخه، وحضارته، حتى لا يؤمن به الآخرون، بل يتخلَّى عنه أبناؤه، ويستبدلون به تلك الحضارة الغربية بحجة أنه دين لا يصلح لمواجهة التقدم العلمي.

ثمَّ ذكرتُ مدى العلاقة الوثيقة بين الاستشراق، وأهداف التنصير والاستعمار، فذكرت الدوافع الأخرى المعاونة والمساعدة والمحققة لما يرمي إليه الهدف الديني وهي: الدافع الاستعماري، والدافع الاقتصادي، والدافع السياسي، والدافع الثقافي العلمي.

ثمَّ ذكرتُ أهداف المستشرقين في جملتهم من الدراسات الاستشراقية.

أمَّا الخاتمة: فقد أشرتُ فيها لأهم النتائج التي خرجتُ بها من دراسة هذا الموضوع، ثمَّ ثبت لأهم المصادر والمراجع، ثمَّ فهرس للموضوعات.

هذا وأحمد الله –تعالى– وأثني عليه الخير كلَّه، وأشكر كلَّ من قدَّم لي النصح من أساتذتي الكرام، وأسأل الله أن يجزيهم عني خير الجزاء.

وأرجو أن أكون قد وفِّقت إلى حدٍّ ما في دراسة هذا الموضوع، والله ولي التوفيق، وهو نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دكتور

سعيد عبد الجواد أبو زيد

تمهيد:

مفهوم الاستشراق

لقد حدث اختلاف كبير بين الباحثين في إيجاد تعريفٍ موحدٍ للاستشراق، رغم أن هذا الاختلاف شكلي وجزئي، إلا أنهم يتفقون فيما بينهم على عناصر مشتركة للاستشراق والمستشرقين، ويعود ذلك إلى تصور كل واحدٍ منهم لحقيقة الاستشراق وأهدافه.

والاستشراق لغة: استشرق من الفعل «شرق» يقال: شرقت الشمس أي طلعت، واسم الموضع المشرق، والشرق: المشرق، والجمع إشراق، والتشريق: الأخذ في ناحية المشرق، يقال: شتان بين مشرِّقٍ ومغرِّب، وشرقوا أي ذهبوا إلى الشرق، أو أتوا الشرق، وكل ما طلع من المشرق فهو شرق.

واستشرق: أي طلب دراسة ما يتعلق بالشرق، فالألف والسين والتاء في أي فعل تدل على الطلب كاستغفر أي طلب المغفرة(١).

وليس طلب الشرق سوى طلب علوم الشرق، وآدابه، ولغاته، وأديانه، ولعلَّ هذا التعريف اللغوي بالنسبة للغة العربية. أما في اللغات الأوروبية فليس المقصود بالشرق ذلك الشرق الجغرافي، وإنما الشرق المقترن معنى الشروق،

(١) مجد الدين الفيروزآبادي: القاموس المحيط، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه، د. ت: ٢٤١/٣ مادة «شرق»، الجوهري: مختار الصحاح، تحقيق: الأستاذ/ أحمد عبد الغفور عطا، ط: دار العلم للملايين: صـ٣٣٦.

والضياء، والنور، والهداية، وهذا ما نقله لنا الدكتور/ سيد محمد الشاهد في تعريفه للاستشراق مستعيناً بالمعاجم الغربية(١).

والاستشراق اصطلاحًا: هو علم الشرق، أو علم العالم الشرقي، وهو تعبير أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيِّين، شعوبهم، وتاريخهم، وأديانهم، ولغاتهم، وأوضاعهم الاجتماعية، وبلادهم وأرضهم، وحضارتهم، وكل ما يتعلق بهم(٢).

أما التعريف العام: فهو أن الاستشراق أسلوب فكري غربي (أي: منهج غربي في رؤية الأشياء، والتعامل معها)، يقوم على أن هناك اختلافًا جذريًّا في الوجود والمعرفة بين الغرب والشرق، وأن الأول يتميَّز بالتفوق العنصري والثقافي على الثاني(٣).

وهناك تعريف خاص درج بعض الباحثين والمتخصصين، لا سيما في مجال العقيدة بتعريف المستشرقين بأنه كان هدفهم الأساسي هو: دراسة الإسلام والشعوب الإسلامية لخدمة أغراض التبشير من جهةٍ، وخدمة أغراض

(١) السيد محمد الشاهد: الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين في الاجتهاد، عدد (٢٢)، السنة السادسة، شتاء عام ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م: صـ١٩١- ٢١١.

(٢) السيد محمد الشاهد: الاستشراق ومنهجية النقد: صـ٢١٠.

(٣) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م: صـ٣.

الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى، ولإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية(١).

وهذا ما عناه الدكتور/ أحمد عبد الحميد غراب في تعريفه للاستشراق بقوله: «دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون -من أهل الكتاب بوجهٍ خاصٍّ- للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب: عقيدة، وشريعة، وثقافة، وتاريخًا، ونظمًا، وثروات، وإمكانيات.. بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي»(٢).

والاستشراق من تعريفه الخاص السابق موقف عقائدي وفكري معادٍ للإسلام، يقفه الكافرون بهذا الدين بوجهٍ عامٍ، وبعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى بوجهٍ خاصٍّ. وهذا الموقف -في جوهره النابع من العداوة في العقيدة- ليس بجديدٍ، وإنما هو امتدادٌ طويلٌ من العداء بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي -منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم-، وهو موقف الإنكار للرسالة، والتكذيب للرسول -صلى الله عليه وسلم-، وإثارة الشبهات حول

(١) عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير- الاستشراق- الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه (ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري)، دار القلم- دمشق، الطبعة الثامنة، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م: صـ٥، محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الطبعة الثانية- القاهرة، دار المنار، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م: صـ٢٤.

(٢) أحمد عبد الحميد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق، ط: ٢، المنتدى الإسلامي، ١٤١١هـ: صـ٧.

الإسلام، وحول القرآن والرسول -صلى الله عليه وسلم-، وسنته المطهرة بوجهٍ خاصٍّ؛ لتشكيك المسلمين في دينهم، ومحاولة ردِّهم عنه.

وقد تختلف وسائل المشركين ووسائل أهل الكتاب، ولكنهم -في نهاية المطاف- يلتقون حول الهدف: وهو محاولة منع الخير -وهو الإسلام- عن المسلمين، ومحاولة ردِّهم عنه كما قال الله -تعالى-: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾[البقرة: ١٠٩] (١).

وهذا المعنى لمفهوم الاستشراق هو الذى ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي عندما يطلق لفظ «استشراق» أو «مستشرق» وهو الشائع أيضًا في كتابات المستشرقين المعنيِّين.

أما مصطلح «الاستشراق» في المفهوم الغربي فقد ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان على تفاوتٍ بسيطٍ بالنسبة للمعاجم الأوروبية المختلفة، لكن الأمر المتيقّن أن البحث في لغات الشرق وأديانه وبخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثيرٍ، ولعلَّ كلمة «مستشرق» قد ظهرت قبل مصطلح «استشراق»، وقد استقصى عدد من الباحثين تاريخ وتدرج ظهور مصطلح الاستشراق في

(١) أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق: صـ١١، ١٨١.

الكتابات الغربية[1]، والتي تدور –في غالب أمرها– على أن الاستشراق هو البحث في حضارة الشرق، وآدابه، ولغاته، وأديانه، وبخاصة الإسلام، وتدعو إلى إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق، ويصف بأن الحاجة كانت ماسة لوجود متخصصين للقيام على إنشاء المجلات، والجمعيات، والأقسام العلمية.

وبعد العرض السابق لتعريف «الاستشراق» نجد أننا ما زلنا في حاجةٍ إلى تعريفٍ أكثر موضوعية، وإنصافاً، وإلمامًا بجوانب الاستشراق، ولعلنا نجد ضالتنا المنشودة في التعريف الذي اقترحه الدكتور/ مازن مطبقاني، والذي أضاف إلى ما سبق بعض الزيادات، وتفرَّع ليشمل نطاقًا أوسع مما يتصوره الباحث، فقال عن الاستشراق: «بأنه كل ما يصدر عن الغربيِّين من أوروبيِّين (شرقيِّين وغربيِّين بما في ذلك السوفيت) وأمريكيِّين من دراسات أكاديمية (جامعية) تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة، أو الفكر، أو الفن، كما يلحق بالاستشراق كل ما تبثه وسائل الإعلام الغربية سواء بلغاتهم، أو باللغة العربية من إذاعاتٍ، أو تلفازٍ، أو أفلامٍ سينمائيةٍ، أو رسومٍ متحركةٍ، أو قنواتٍ فضائيةٍ، أو ما تنشره صحفهم من كتاباتٍ تتناول المسلمين وقضاياهم. كما أن من الاستشراق ما يخفى علينا ممَّا يقرره الباحثون والسياسيون الغربيون في ندواتهم ومؤتمراتهم العلنية أو السرية. ويمكننا أن نلحق بالاستشراق ما يكتبه النصارى العرب من أقباط وماروني‌ِّين وغيرهم، ممَّن ينظر إلى الإسلام من خلال المنظار الغربي، ولا بد أن نلحق بالاستشراق ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي

(١) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ٣– ٥.

المستشرقين، وتبنَّوا كثيرًا من أفكار المستشرقين، حتى إن بعض هؤلاء التلاميذ تفوَّق على أساتذته في الأساليب والمناهج الاستشراقية، ويدل على ذلك احتفال دور النشر الاستشراقية بإنتاج هؤلاء، ونشره باللغات الأوروبية على أنها بحوث علمية رصينة، أو ما يترجمونه من كتابات بعض العرب والمسلمين[1] إلى اللغات الأوروبية»[2].

ويجب ملاحظة أن الاستشراق أصبح يهتم بالشعوب الشرقية عمومًا التي تضم الهند، وجنوب شرق آسيا، والصين، واليابان، وكوريا. وعند مراجعة النشاطات الاستشراقية نجد أن هذه المناطق بدأت تخصص بدراسات خاصة بها مثل: الدراسات الصينية، أو الدراسات الهندية، أو الدراسات اليابانية.

ومن الملاحظ أن مدلول كلمة «استشراق، ومستشرق» ارتبط لدى المسلمين بصورةٍ سلبيةٍ وصلت لحد النظرة لدى البعض بكون كل مستشرق معادٍ للإسلام والمسلمين، ورفض كل ما يكتبه المستشرقون –ولو كان حقًّا– والارتياب في نواياهم، وكتاباتهم؛ وهذا ما دفع الغربيِّين أنفسهم، والقائمين على الدراسات الشرقية إلى تغيير الاسم، بعدما أصبح هذا المصطلح ينطوي على عداوةٍ تاريخيةٍ، ودلالاتٍ سلبيةٍ، وأن هذا المصطلح لم يَعُدْ يفي بوصف الباحثين المتخصصين في العالم الإسلامي، فكان من قرارات منظمة المؤتمرات العالمية في مؤتمرها الذي عقد في باريس عام ١٩٧٣م بأن يتم

(١) وذكر الدكتور أن من أمثال ذلك: ما نشر لمحمد عبد الحي شعبان، وعزيز العظمة، ونوال السعداوي، وفاطمة مرنيسي، وفضل الرحمن، وغيرهم كثير، حيث قامت دور النشر الجامعية لكبريات الجامعات الغربية وبخاصة الأمريكية بنشر إنتاج هؤلاء وترويجه.

(٢) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ٥.

الاستغناء عن هذا المصطلح، وأن يطلق على هذه المنظمة (المؤتمرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا (ICHSANA]. وعقدت المنظمة مؤتمرين تحت هذا العنوان إلى أن تم تغييره مرةً ثانيةً إلى المسمى الجديد وهو (المؤتمرات العالمية للدراسات الآسيوية وشمال أفريقية ICANAS). ولم يحدث اتفاق بين الغربيِّين أنفسهم على هذا التعديل المظهري، بل عارضته دول الكتلة الشرقية (روسيا والدول التي كانت تدور في فلكها)، ومع ذلك ففي المؤتمر الدولي الخامس والثلاثين للدراسات الآسيوية وشمال أفريقية الذي عقد في بودابست بالمجر كان مصطلح «استشراق ومستشرقين» يستخدم دون أيِّ تحفظات؛ ممَّا يعني أن الأوروبيِّين الغربيِّين والأمريكيِّين هم الأكثر اعتراضًا على هذا المصطلح، ولعلَّ هذا ليفيد المغايرة، بحيث يتحدثون عن المستشرقين؛ ليثبتوا أنهم غير ذلك، بل هم مستعربون Arabists أو إسلاميون Islamists، أو باحثون في العلوم الإنسانية Humanists، أو متخصصون في الدراسات الإقليمية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، التي تختص ببلدٍ معيَّنٍ، أو منطقةٍ جغرافيةٍ معيَّنةٍ[1].

والحقيقة أن هذا التغيير في سياسة المستشرقين يجب ألا ننخدع به، ويجب أن يكون الباحثون المسلمون متيقظين لما يصدر عن المستشرقين من كتاباتٍ، فإن كانت صادقةً وموضوعية فبها ونعمت، ولا يمنع اختلافنا معهم من قراءة كتاباتهم، والاستعانة والاستفادة منها، أما إن خرجت عن إطار الموضوعية، وواصلت حملة التشكيك والإرجاف فوجب على كل باحثٍ الإعراض عنها، بل ومناقشة ذلك، والرد عليها بموضوعيةٍ، وإنصاف.

(١) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ٧.

ويجب أن لا نغفل عن نشاطهم واستمرار اهتمامهم بدراسة تراثنا، والكتابة حول قضايانا، وعقد المؤتمرات، والندوات، ونشر الكتب، والدوريات حول العالم الإسلامي، واستمرار أهداف الاستشراق، وأن لا يصرفنا تغيير الاسم عن الوعي والانتباه لما يكتبونه وينشرونه.

والحقيقة التي يجب أن نعترف بها أنه مع وجود بعض الدراسات الاستشراقية التي تفتقد إلى الموضوعية، قام بعض من محبي العلم بدراسات استشراقية حيادية غير موجهة، وكان من هؤلاء -إنصافًا للحقيقة- بعض المنصفين ممَّن تأثروا بالإسلام، وبالحضارة الإسلامية، فأسلم وحسن إسلامه(١).

هذا وممَّا لا شكَّ فيه أن الاستشراق كان له أكبر الأثر في صناعة التصورات الأوروبية عن الإسلام وأمته، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة، وحتى يومنا هذا(٢).

(١) عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، صـ٥٠- ٥١، محمود زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: صـ٢٤.

(٢) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: صـ٢٠.

المبحث الأول
تاريخ الاستشراق وتطوره

اختلف الباحثون في نشأة الاستشراق، وفي تحديد سنةٍ معينةٍ، أو فترةٍ معينةٍ لنشأة الاستشراق، فيرى البعض أن الاستشراق ظهر مع ظهور الإسلام.

فهناك من يؤكِّد على أن تاريخ الاستشراق تمتد جذوره إلى الصدر الأول من الإسلام، متمثلًا في اليهود والنصارى الذين لم يألوا جهدًا من أجل محاربة هذا الدين، وذلك بالطعن فيه، والهمز واللمز في أحكامه، وتشريعاته، واتهام الرسول –صلى الله عليه وسلم– بالجنون والسحر وأنه شاعر، يقول الله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء: ٥] ، ويقول جلّ ذكره عنهم –أيضًا–: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤–٥] . وقوله: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [سورة المدثر: ٢٤–٢٥].

وقد اتخذ هؤلاء المشركون والكفار من أهل الكتاب سُبُلًا كثيرةً للطعن في هذا الدين لإعراض الناس عنه، فتارةً يحرِّفون آياته، وتارةً يكتمون الحق وهم يعلمون، وأخرى يشكِّكون فيه بالطعن في الوحي نفسه، يقول الله – تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥] . ويقول جل ذكره: ﴿ وَءَامِنُواْ

بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ٤١-٤٢].

وكثيرًا ما كان يتبع أهل الكتاب سبيل الدخول في الإسلام لفترةٍ وجيزةٍ، ثم الارتداد عنه ليظهروا للناس أنهم جرَّبوا هذا الدين؛ فوجدوه غير نافع وغير صالح، لإخراجهم من ظلماتهم وضلالهم، يقول الله -تعالى- عنهم: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

هذه المواقف والأفعال لم تكن ذات أبعادٍ إنسانيةٍ، أو إيجاد الخير للناس، وإظهار الحق واتباعه، وإنما كانت جميعها منصبةً ليردوا الناس عن دينهم، ويتبعوا دياناتهم المنحرفة، يقول الله -تعالى- فيهم: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ويقول- أيضًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وكل هذه الوسائل وغيرها اتبعها أهل الكتاب والمشركون للصد عن دين الله في السابق، ويتبعها المستشرقون المعاصرون في نشاطاتهم الفكرية والثقافية، وهذا يعني -حقًّا- أنهم امتداد لذلك التيار المعارض والمحارب لدين الله -تعالى- في بداية بزوغه[1].

(١) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: صـ٢٠.

وما نراه على أرض الواقع، وما تقوم به البابوية من إنفاق الأموال الكثيرة التي رصدت، وما زالت ترصد للصد عن سبيل الله، وهذه المؤتمرات التي تعقد هنا وهناك شغلها الشاغل هو المحاولة لصرف وجوه المسلمين عن دينهم، وعن سنة نبيهم، يؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[النساء: ٨٩].

ولعلَّ اهتمام النصارى بهذا الدين يعود إلى هجرة المسلمين إلى الحبشة، وقد كان ملكها النجاشي نصرانيًّا، وما دار من حديثٍ حول هذا الدين بين البطارقة في مجلسه، وكيف أدرك هذا الملك حقيقة هذا الدين فاعتنقه.

وكانت الفرصة الثانية لتعرف النصارى على هذا الدين حينما بعث الرسول –صلى الله عليه وسلم– رسله إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية، وكان هرقل عظيم الروم أحد هؤلاء الملوك، وكان أبو سفيان في تجارةٍ له إلى الشام، فاستدعاه هرقل وسأله عن الإسلام، وأظهر هرقل اقتناعه بصدق هذا الدين وحقيقته(١).

وهناك رأي بأن غزوة مؤتة التي كانت أول احتكاكٍ عسكريٍّ تُعَدُّ من البدايات للاستشراق(٢)، في حين يعود به آخرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري، وأنه نشط في الشام بواسطة الراهب (يوحنا الدمشقي John of Damascus) في كتابين الأول: حياة محمد. والثاني: حوار بين

(١) صحيح البخاري، كتاب كيف بدأ الوحي.

(٢) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ٧.

مسيحيٍّ ومسلمٍ. وكان هدفه إرشاد النصارى في جدل المسلمين، وهذا الأمر يعضِّد القول بأن حركة الاستشراق قد انطلقت بباعثٍ دينيٍّ يستهدف العداء مع الإسلام خدمةً للاستعمار، وتسهيل عمله، ونشر المسيحية(١).

إلا أن نشوء الاستشراق في القرون المتأخرة ليس له تاريخٌ محدَّدٌ، ومعلومٌ، وإنما بدأ تأسيسه عندما حاول بعض الرهبان الغربيِّين السفر إلى الأندلس، ودرسوا القرآن، والكتب العربية وترجموها إلى لغاتهم، وذلك بالاستعانة بالعلماء المسلمين في الطب، والفلَك، والفلسفة، والرياضيات، وغيرها، ومن أوائل هؤلاء الغربيِّين:

- هربر دي أورلياك (٩٣٨– ١٠٠٣م) Herbert de Oraliac من الرهبانية البندكتية، قصد الأندلس، وقرأ على أساتذتها ثم انتخب –بعد عودته– حبرًا أعظم باسم سلفستر الثاني ٩٩٩– ١٠٠٣م فكان بذلك أول بابا فرنسي.
- في عام ١١٣٠م قام رئيس أساقفة طليطلة بترجمة بعض الكتب العلمية العربية.
- جيرار دي كريمونا ١١١٤– ١١٨٧م Gerard de Gremona إيطالي، قصد طليطلة، وترجم ما لا يقل عن ٨٧ مصنفاً في الفلسفة، والطب، والفلَك، وضرب الرمل.

---

(١) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ٧، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠هـ: ٦٨٧/٢.

- بطرس المكرم ١٠٩٤– ١١٥٦م Prerre le venerable فرنسي من الرهبانية البندكتية، رئيس دير كلوني، قام بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول على معرفة موضوعية عن الإسلام. وقد كان هو ذاته وراء أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ١١٤٣م التي قام بها الإنجليزي روبرت أوف كيتون robert of Ketton.
- يوحنا الإشبيلي: يهودي متنصر Juan de Sevilla ظهر في منتصف القرن الثاني عشر وعني بعلم التنجيم، نقل إلى العربية أربعة كتب لأبي معشر البلخي ١١٣٣م وقد كان ذلك بمعاونة إدلر أوف باث.
- روجر بيكون ١٢١٤– ١٢٩٤م roger Bacon إنجليزي، تلقَّى علومه في أكسفورد، وباريس؛ حيث نال الدكتوراه في اللاهوت، ترجم عن العربية كتاب «مرآة الكيمياء» نورمبرج ١٥٢١م.
- رايموند لول ١٢٣٥– ١٣١٤م قضى تسع سنوات ١٢٦٦– ١٢٧٥م في تعلّم العربية، ودراسة القرآن، وقصد بابا روما، وطالبه بإنشاء جامعات تدّرس العربية لتخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام، ووافقه البابا. وفي مؤتمر فيينا سنة ١٣١٢م تمَّ إنشاء كراسٍ للغة العربية في خمس جامعاتٍ أوربيةٍ هي: باريسُ، واكسفورد، وبولونيا بإيطاليا، وسلمنكا بأسبانيا، بالإضافة إلى جامعة البابوية في روما[١]. وتعتبر هذه هي بداية الاستشراق اللاهوتي بشكلٍ رسميٍّ.

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٦٨٧/٢.

وبعد أن قام المستشرقون بدراساتٍ متعددةٍ عن الإسلام، واللغة العربية، والمجتمعات المسلمة، ووظَّفوا خلفياتهم الثقافية، وتدريبهم البحثي لدراسة الحضارة الإسلامية، والتعرّف على خباياها، ونشروا هذه الثقافة التي ارتأوها في الأندلس إلى بلادهم، ونقلوها، واستفادوا منها قرابة ستة قرونٍ تقريبًا، من حيث دراسة اللغة العربية، وترجمات القرآن الكريم، وأمهات الكتب، والمراجع العربية العلمية(١).

ومما يؤيِّد هذا الطرح: أنه منذ أن دقَّت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوربا العريضة، وكان المسلمون قد احتلوا عرش السيادة الدولية، وملأوا سمع الزمان، وبصره، وأخذت أوربا الغارقة في الجهل، والتخلف الحضاري يومئذٍ تبحث عن أسباب نهضة المسلمين، وعن أسباب نبوغهم وبلوغهم هذا المجد العظيم الذي بلغوه؛ فأخذ بعض رجال الكنيسة الأوربيِّين يدرسون علوم هؤلاء الفاتحين ولغاتهم، لعلَّهم يظفرون بما يوقفون به مدَّ هذا الفتح الإسلامي، ولعلَّهم يكتسبون من علوم المسلمين ما ينفعهم في إنقاذهم من تخلفهم، ويفتح لهم أبواب الارتقاء، والقوة، فكان –إذن– الاستشراق طلبًا لعلوم الشرقيِّين، ولغاتهم، وأوضاعهم، وبحثًا عنها.

ويرى آخرون أن الحروب الصليبية هي بداية الاحتكاك الفعلي بين المسلمين والنصارى، الأمر الذي دفع النصارى إلى محاولة التعرُّف على المسلمين، وقوتهم، خاصةً بعد هزيمة «لويس التاسع» ملك فرنسا، وأسره في المنصورة، وما تمخَّض عنه تفكيره من صعوبة هزيمة المسلمين عسكريًّا، فلا

(١) فالح بن محمد بن فالح الصغيّر: الاستشراق وموقفه من السنة النبوية: صـ٩، مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ٧.

بُدَّ من التخطيط الفكري بجانب التخطيط الحربي والسياسي؛ ممَّا تمخَّض عنه بداية الدراسات الاستشراقية.

وفي أعقاب الحروب الصليبية وضعت الخطة لغزو المسلمين بوسائل أخرى غير وسيلة الحرب العسكرية المسلحة بالأسلحة المادية، واقتضت خطة الغزو الجديد التوسُّع في الدراسات الاستشراقية؛ لتكون تمهيدًا لهذا الغزو، وإعدادًا للسيطرة على المسلمين فكريًّا، وثقافيًّا.

ولمَّا كان المحرِّكون للحرب الصليبية من رجال الكهنوت الأوربيِّين يومئذٍ تكاد تكون منحصرة في الكنيسة لديهم، كان أوائل المتوجِّهين للدراسات الشرقية من هؤلاء الرجال أيضًا، ولا ريب أن أغراضهم في ذلك تواكب أغراض الحروب الصليبية التي أخذت أسلوبًا جديدًا في الغزو، غير أسلوب الغزو العسكري المسلح بالأدوات الحديدية، وتتفق مع أهداف التبشير بالمسيحية.

وانطلق المتوجِّهون للدراسات الشرقية يعملون في هذا المضمار بجدٍّ، ويترجمون إلى لغاتهم كتبًا كثيرةً من كتب المسلمين(١).

والحقيقة أن هذه البدايات لا تُعَدُّ البداية الحقيقية للاستشراق الذي أصبح يُنْتج ألوف الكتب سنويًّا، ومئات الدوريات، ويعقد المؤتمرات، وإنَّما تُعَدُّ هذه جميعًا من قبيل الإرهاص لها، وما أتى بعدها يُعَدُّ من قبيل تعميق الفكرة، والتوسع فيها، وشد الانتباه إليها(٢).

---

(١) عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة: أجنحة المكر الثلاثة: صـ١٢٤.

(٢) علي إبراهيم النملة: الاستشراق في الأدبيات العربية، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م: صـ٢٣- ٣١.

وتعتبر البداية الحقيقية للاستشراق -الذي يوجد في العالم الغربي اليوم، ولا سيما بعد أن بنت أوروبا نهضتها الصناعية، والعلمية، وأصبح فيها العديد من الجامعات، ومراكز البحوث، وأنفقت -ولا تزال تنفق- بسخاءٍ على هذه البحوث- قد انطلقت منذ القرن السادس عشر الميلادي؛ حيث «بدأت الطباعة العربية فيه بنشاطٍ، فتحركت الدوائر العلمية، وأخذت تصدر كتابًا بعد الآخر..، ثمَّ ازداد النشاط الاستشراقي بعد تنامي تأسيس كراس للغة العربية في عددٍ من الجامعات الأوروبية، مثل: كرسي أكسفورد عام ١٦٣٨م، وكامبريدج عام ١٦٣٢م[١].

وانطلق المتوجِّهون للدراسات الشرقية يعملون في هذا المضمار بجدٍّ، ونشاطٍ، ويترجمون إلى لغاتهم كتبًا كثيرةً من كتب المسلمين، ونبتت نابتة الفكر الاستعماري في دول أوربا بعد نهضتها، واحتاج الطامعون باستعمار بلاد المسلمين إلى زاد من الدراسات الشرقية، فوجهت الدوائر الاستعمارية أعدادًا من المتعلِّمين في بلادها للتفرغ للدراسات الشرقية من جوانب متعددةٍ: لغويةٍ، ودينيةٍ، واجتماعيةٍ، وتاريخيةٍ، وسياسيةٍ، وغير ذلك. وكان كثير منهم من منسوبي الكنيسة الذين يحملون في نفوسهم أهداف التبشير، فالتقت في الاستشراق أهداف جمعيات التبشير، وأهداف الدوائر الاستعمارية، ومن طبيعة الأهداف التي تسبق الأعمال في التصوّر: أن تكون موجَّهة للأعمال، ومؤثِّرة

(١) أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة، مطبعة دار المعارف، ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م: صـ٧٧.

فيها، إلا من نما في قلبه وجدان حب الحق، وسيطرت عليه الرغبة بنصرته، ولو كان ضد هواه، وضد عصبياته الخاصة، وقليلٌ ما هم(١).

إلى أن جاء عهد الاستعمار في القرن الثامن عشر الميلادي على العالم الإسلامي؛ للاستيلاء على خيراته، وثرواته المادية، والثقافية، فقد ظهرت فئة من هؤلاء الغربيِّين الذين تفرَّغوا تمامًا بالتعاون مع الاستعمار لنهب ثروات العالم الإسلامي العلمية، والفكرية، والمتمثلة بالدرجة الأولى في الكتب والمخطوطات القيِّمة بأبخس الأثمان، مستفيدين من الفوضى العارمة في العالم الإسلامي، حتى بلغ عدد هذه المخطوطات والوثائق العلمية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي مائتين وخمسين ألف مجلد، والعدد يتزايد يومًا بعد يوم(٢).

وكان من المشروعات الاستشراقية المهمة: إنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحيَّة في فرنسا برئاسة المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي Silvester de Sacy التي كانت تُعَدُّ قبلة المستشرقين الأوروبيِّين، وساهمت في صبغ الاستشراق بالصبغة الفرنسية مدةً من الزمن(٣)، وإنشاء الجمعيات

(١) أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي: صـ٧٧.

(٢) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، دار الوراق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي: صـ١٧- ١٨.

(٣) نجيب العقيقي: المستشرقون، ط: ٤، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠م: ١/١٤٠.

الاستشراقية، وأيضًا بداية منظمة المؤتمرات العالمية للمستشرقين عام ١٨٧٣م في عقد مؤتمراته السنوية(١).

وكان هذا بداية لعشرات المؤتمرات التي بدأت تدرس أحوال العالم الإسلامي، وطرائق الوصول إلى ثرواته، ودراسة نقاط الضعف والقوة فيه، مستعينة بالقوى الاستعمارية الكبرى، فتأسست للاستشراق معاهد، وتألفت جمعيات من المستشرقين؛ للتعاون في الأعمال المتعلقة بالدراسات والعلوم الشرقية، كنشر بعض المخطوطات العربية، ووضع الفهارس الشاملة لبعض الكتب الإسلامية الأصول، ووضع بعض المعاجم المفهرسة، وتفصيل آيات القرآن الكريم بحسب موضوعاتها، ونحو ذلك.

ودخلت هذه الدراسات الشرقية في الجامعات الكبرى، فكان لها فروع حتى مستوى تحصيل شهادة الدكتوراه، وأخذ فريق من المستشرقين يؤلِّف المؤلَّفات المتعلقة بالعلوم الإسلامية؛ لخدمة أهداف الاستشراق الأساسية الرامية إلى تشويه الإسلام، وتشويه التاريخ الإسلامي، ووضع الشبهات، وتصيُّد الأدلة لها، وتوجيه الانتقادات الملفَّقة إلى أحكام الإسلام وشرائعه، وتتبُّع الأخبار الساقطة، والأقوال الضعيفة المردودة، وتفسير الظواهر تفسيرًا ماديًّا بحسب ما يروق لهم، وشرح النصوص القرآنية على أساس أن القرآن ليس من كلام الله، وليس كتابًا منزَّلًا، وشرح الأحاديث النبوية على أساس أن محمدًا عبقري من الناس، وليس برسولٍ كسائر الرسُل، وتعليل الفتح الإسلامي بالرغبات الشخصية المماثلة للرغبات التي توجد عند الاستعماريِّين، وإبعاد كل دافعٍ دينيٍّ

(١) مازن مطبقاني: الاستشراق: صـ٩، مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: صـ١٧- ١٨.

إسلاميٍّ عن كل حدثٍ تاريخيٍّ للمسلمين، ومحاولات التحريف في النصوص عند الاستشهاد بها، واللُّجوء إلى المغالطات الكثيرة لدى مناقشة الموضوعات الإسلامية، وتعمد إبراز سقطات الفسَّاق من المسلمين في مدى تاريخهم الطويل، والتشكيك بصحة الأحاديث الصحيحة المروية بتوجيه المطاعن إلى رواة الحديث، ولو كانوا من أصحاب الرسول، والتشكيك بالقرآن الكريم، بتوجيه المطاعن المفتراة إلى نقله، وتدوينه، والقراءات الثابتة فيه، وإلى مضامينه، وبتوجيه المطاعن إلى ظاهرة الوحي التي تلقى بها الرسول كتاب ربّه، إلى غير ذلك من أمورٍ لا تحصى، وأساسها جميعًا الرغبة بإبطال الحق تعصبًا، واتباعًا للهوى.

ورأى اليهود الاستشراق بابًا خطيرًا من أبواب التسلسل إلى البلاد التي يحلمون بالسيطرة عليها وفق طريقتهم، ويريدون أن يتَّخذوا لأنفسهم صنائع فيها من أبنائها، فتخصص فريق منهم بالدراسات الشرقية، وتابعوا المسيرة ضمن الخطط اليهودية، حتى احتلَّ اليهود عددًا وفيرًا من كراسي الدراسات الشرقية في الجامعات الكبرى، وأخذوا يخدمون الأغراض اليهودية الصهيونية في هذا المجال، تحت ستار خدمة أغراض المستشرقين المسيحيِّين، وأغراض الدوائر الاستعمارية.

ودخل الأوربيُّون الشرقيون بعد نجاح الثورة الشيوعية في بلادهم ميادين الاستشراق تبعًا للغرب، وبغية استخدام دراساتهم في هذا المجال؛ لتقويض الإسلام، واستدراج الشعوب الإسلامية إلى الشيوعية[1].

(١) عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة: صـ١٢٥.

وهذه المحاولات الجادة لتشويه صورة الإسلام، والنيل منه، تحتِّم على المختصين من أبناء المسلمين اليقظة، والوعي، والدراسات الجادة للقيام بمهمتهم، والسعي لنشر دينهم والحفاظ على مصادر تشريعهم، وقد تكفَّل ربنا -عزَّ وجلَّ- بحفظ كتابه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ويقول أيضًا: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٢].

المبحث الثاني
دوافع المستشرقين

اعتنت الدراسات العربية حول الاستشراق والمستشرقين بالبحث عن البواعث، أو الأهداف التي حدت بهم إلى دراسة علوم المسلمين، لا سيما التراث الإسلامي مع انطلاقة الاستشراق، ثم المجتمع المسلم الحديث الذي شهد تطوراتٍ وتغييراتٍ دعت إلى دراسته، والتركيز عليه(١).

نقوم هنا -بحول الله تعالى- باستعراض أهم الأهداف والدوافع التي حركت حركة الاستشراق إلى الولوج إلى تاريخنا العربي والإسلامي:

الهدف الديني:

تتداخل الدوافع مع الأهداف أحياناً فإن الهدف الديني الذي أراد الاستشراق تحقيقه كان دافعه الأساس كما يقول آصف حسين أن رجال الدين النصارى رأوا قوة الإسلام واندفاع كثير من النصارى للدخول فيه واستيلاء الإسلام على أراض كانت النصرانية هي الدين الوحيد فيها حتى أصبح النصارى قله فخاف هؤلاء على مكانتهم ومكاسبهم الدنيوية والدينية مما أجج أحقادهم فكان لابد أن يقفوا في وجه الإسلام حيث إنه ليس في الإسلام طبقة رجال دين أو أكليروس كما في النصرانية(٢).

كما أن العلاقة بين الغرب والإسلام قائمة على صراعٍ دينيٍّ ظهر واضحًا أثناء الحروب الصليبية التي امتدت قرنين من الزمان من سنة ٤٨٩-

---

(١) علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير: صـ٦.

(٢) آصف حسين: المسار الفكري للاستشراق، ترجمة: مازن مطبقاني، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- العدد السابع ربيع الثاني ١٤١٣هـ: صـ٥٦٦- ٥٩٢.

٦٩١هـ، ١٠٩٥- ١٢٩١م، هذا مع الأخذ في الحسبان الرأي القائل: أن هذه الحروب لما تنته، ولن تنتهي، مصداقًا لقول الباري -عزَّ وجل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[البقرة: ١٢٠].

والمعلوم أن المستشرقين ليسوا جميعًا ممَّن ينتمون إلى النصرانية دينًا، ففيهم المستشرقون اليهود الذين خدموا اليهودية من خلال دراساتهم الاستشراقية، كما أن فيهم الملحدين الذين خدموا الإلحاد من خلال اهتمامهم بالمنطقة العربية والإسلامية، ومحاولاتهم نشر الإلحاد في هذه البقاع بديلًا عن الإسلام.

ويمكن أن يدخل هؤلاء جميعًا تحت الهدف الديني، إذا ما توسَّعنا في هذا المصطلح. ثم العلمانية التي تُعَدُّ كذلك دينًا، أو اعتقادًا إذا أردنا الدقة. وهناك انتسابٌ واضحٌ إلى العلمانية عند فئة من المستشرقين(١)، كما أن هناك انتسابًا صريحًا للصهيونية عند فئةٍ أخرى من المستشرقين(٢)؛ ممَّا يعني أن هناك انتسابًا صريحًا للتنصير عند فئةٍ ثالثةٍ من المستشرقين.

وهذا يؤيّد أن النظرة إلى الاستشراق التنصيري لا تحتاج إلى شيءٍ من التعسُّف، أو تلمس البراهين؛ لتأييد وجود منصِّرين مستشرقين، ذلك أن فئةً منهم لم تتورَّع عن قبول اللقب الديني، أو الرتبة الدينية «الأب»، أو «الأسقف»، أو «البطريرك»، أو «المطران» سابقًا للاسم الأصلي.

---

(١) نجيب العقيقي: المستشرقون: ٣/ ٢١٩- ٢٢١.

(٢) علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٠.

والحقيقة أنه وجد جمع من المستشرقين هدفوا من دراستهم للشرق إلى تعميق فكرة التنصير في هذا المجتمع، وحاولوا بطريقتهم العلمية تحقيق مفهوم التنصير، مع ما تعرَّض له هذا المفهوم من تحويرٍ، لا سيما عندما يكون موجهًا لمجتمعٍ متديّنٍ كالمجتمع المسلم، وبما يحمله المفهوم من حماية النصارى من الإسلام، والحد من انتشاره بين النصارى وفي مواطنهم، ومن ثمَّ الحد من انتشاره بين غير النصارى في مواطنهم أيضًا. يمكن أن يكون من الأهداف الدينية التنصيرية السعي إلى توحيد الكنيستين: الشرقية، والغربية، الأمر الذي يستدعي وجود الاستشراق والإفادة منه في هذا الشأن(١).

وحين قامت جمعيات التبشير، ووضعت من أهدافها تحويل المسلمين عن دينهم إلى النصرانية، أو إلى اللادينية، والإلحاد الكامل، كانت دوافع الاستشراق لدى المبشرين وأنصارهم ومؤيّديهم هي دوافع التبشير أنفسها، وهي تتلخَّص بالرغبة الملحة في سلخ المسلمين عن دينهم، ومحاولة إدخالهم في النصرانية، أو إبقائهم ملاحدة لا دين لهم، حتى يكونوا أطوع للدول النصرانية الطامعة باستعمار بلاد المسلمين، واستغلال خيراتها.

ومن خلال معرفتنا لهذا الدافع نستطيع معرفة الهدف النهائي والمرتبط به.

فهدف هذا الدافع: هو إخراج المسلمين عن دينهم، فإن أمكن تنصيرهم فذلك، وإلا فإبقاؤهم لا دين لهم مطلقًا هدفٌ مرجوٌّ يحقّق للنصارى منافع ومصالح سياسية، واقتصادية، واستعمارية، وغير ذلك.

---

(١) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: صـ٢٩.

ولإخراج المسلمين عن دينهم وسائل كثيرة، منها:

١- تشكيك المسلمين بدينهم، وقرآنهم، وشريعتهم، وفقههم، ففي ذلك هدفان: ديني، واستعماري.

٢- تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، فيدعون أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، ولم يكن لهم إبداع فكري، ولا ابتكار حضاري، وكان في حضارتهم كل النقائص، وإذا تحدثوا بشيءٍ عن حسناتها -وقليلًا ما يفعلون- يذكرونها على مضضٍ مع انتقاصٍ كبيرٍ.

٣- إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبثّ روح الشكّ في كلِّ ما بين أيديهم من قيمٍ، وعقيدةٍ، ومُثُلٍ عليا؛ ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم، فيكونوا عبيدًا لها، يجرُّهم حبها إلى حبهم، أو إضعاف روح المقاومة في نفوسهم.

٤- إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم، وكذلك يفعلون في البلاد الإسلامية، ويجتهدون لمنع اجتماع شملها، ووحدة كلمتها بكلِّ ما في أذهانهم من قدرةٍ على تحريف الحقائق، وتصيّد الحوادث الفردية في التاريخ؛ ليصنعوا منها تاريخًا جديدًا يدعو إلى ما يريدون من منع الوحدة بين البلاد العربية والإسلامية والتفاهم على الحق والخير بين جماهيرها.

٥- تنفير المسلمين من دينهم، وحملهم على كراهيته.

٦- تشويه الإسلام، والتشكيك في أسُسه، وتوجيه المطاعن له.

٧- نبش الحضارات القديمة، وإحياء معارفها، وبعث الطوائف الضالة، والحركات الهدامة القديمة.

٨- تزيين ما في المسيحية من تعاليم، وأحكام.

٩- استدراج المسلمين للأخذ بالحضارة المادية الحديثة، وما فيها من مغرياتٍ للنفوس، ومرضياتٍ للأهواء، وآسراتٍ للشهوات، وباهراتٍ للنظر.

١٠- ادّعاء أن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتلاءم مع التطوّر الحضاري.

١١- الدعوة إلى نبذ اللغة العربية، وتبديل طريقة كتابتها(١).

فغاية الهدف الديني هي معرفة الإسلام لمحاربته، وتشويهه، وإبعاد النصارى عنه، وقد اتَّخذ النصارى المعرفة بالإسلام وسيلةً لحملات التنصير التي انطلقت إلى البلاد الإسلامية، وكان هدفها الأول: تنفير النصارى من الإسلام؛ ولذلك فإن الكتابات النصرانية المبكرة كانت من النوع المتعصب والحاقد جدًّا، حتى إن بعض الباحثين الغربيِّين في العصر الحاضر كتب نقدًا عنيفًا لاستشراق العصور (الأوروبية) الوسطى من أمثال: نورمان دانيال Norman Daniel في كتابه «الإسلام والغرب»، فقد كتب دانيال أن أسباب حقد النصارى، وسوء فهمهم للإسلام، ما زال بعضه يؤثر في موقف الأوروبيِّين من الإسلام، بالرغم من التحسُّن العظيم الحديث في الفهم، والذي أشاد به بعض المسلمين(٢).

---

(١) عبد الرحمن بن حسن حبنَّكة: أجنحة المكر الثلاثة: صـ١٢٩.

(٢) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ١٠.

والذي يؤيد وجود هذا الهدف عدة عوامل مهمة، ومن أبرزها:

- أن أساس العلاقة بين الشرق والغرب قد قامت على العداء الديني، ورفض الإسلام بديلًا للنصرانية في الشرق وغيره، بما في ذلك حماية النصارى الشرقيِّين من الإسلام، والتأثير على الأرثوذوكس في الشرق، واستقطابهم للكنيسة الكاثوليكية في الغرب(١).
- وأن هذا الشعور قد ولَّد شعورًا بالاستعلاء والفوقية الغربية على بقية أمم الأرض، بما فيها المسلمون، وأن هذا الشعور بالفوقية قد انطلق من الكنيسة الغربية باحتقار كلِّ ما هو غير بابوي النحلة، والهوى، وقد تسرَّب هذا الشعور رويدًا بتأثير وعاظ الكنائس، والقسس، والرهبان، فخلق فيهم حالةً نفسيةً استعلائيةً، صبغت العقلية الغربية، والفكر الغربي في القرون الوسطى، وقد صدَّق المستشرقون هذه النظرة، ولم يكلِّفوا أنفسهم تبديلها مع عيشهم الطويل بين المسلمين، أو من زياراتهم المتكررة، واطلاعهم على القرآن الكريم، والحديث الشريف، فاستمر شعورهم العميق بتفوق ما لديهم، إن حقًّا، وإن باطلًا،

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٧م: صـ٧- ٤٦، علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (سلسلة تاريخ المصريين ١٥)، ١٩٨٨م: صـ٣١- ٣٤، علي بن إبراهيم النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٠.

في الوقت الذي رأوا فيه بطلان ما لدى غيرهم؛ لعدم اتفاقه مع ما لديهم من دينٍ، وثقافةٍ، وفكرٍ(١).

- أن طلائع المستشرقين من النصارى كانوا ذوي مناصب دينية، وأنهم قد انطلقوا من الكنائس، والأديرة، ويعود هذا إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، القرن العاشر الميلادي، مع أن التبادل الثقافي والعلمي بين المسلمين ونصارى أوربا قد بدأ قبل ذلك بكثيرٍ، لا سيَّما في عهد الخليفة العباسي «هارون الرشيد» (ت ١٨٢هـ)، و«المأمون» (ت ٢٣٠هـ) (٢).
- وأن كثيرًا من المستشرقين قد بدأوا حياتهم العلمية بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية، وكان همهم إرساء نهضة الكنيسة وتعاليمها، لا سيَّما في العصور الوسطى، أي: أن هدفهم كان تنصيريًّا واضحًا، فكأن الاستشراق إنَّما قام ليغذي التنصير بالمعلومة المنقولة بلغة المنصّر، رغم محاولات تعميم اللاتينية لغة للتنصير.
- وأن أوائل المطبوعات الغربية باللغة العربية قد ركّزت على الكتب الدينية النصرانية، وأن أول ما طبعته لايدن من الكتب كان الإنجيل (١٥٦٩- ١٥٧٣م)، ويذكر «العقيقي» أن أول كتاب عربي طُبِع في

(١) قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض، دار الرفاعي ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م: صـ٥١، علي بن إبراهيم النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٠.

(٢) علي بن إبراهيم النملة: مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٢هـ: صـ١٢.

«هولندا» كان الحروف الأبجدية والمرموز الخمسين تجربة لها (١٥٩٥م) [١].

- وأن التنصير قد اتكأ كثيرًا على الاستشراق في الحصول على المعلومات عن المجتمعات المستهدفة، لا سيَّما الإسلامية في موضوعنا هذا، وخاصة عندما اكتسب مفهوم التنصير معنى أوسع من مجرد الإدخال في النصرانية إلى تشويه الإسلام، والتشكيك في الكتاب، والسنة، والسيرة، وغيرها، فكان فرسان هذا التطور في المفهوم هم المستشرقين[٢].
- وأن من مقاصد الاستشراق الرئيسة، التي انطلق منها: التعرف على مصادر النصرانية من اللغة العبرية، وقد ساقتهم دراسة اللغة العبرية إلى تعلّم اللغة العربية، وتعلّم اللغة العربية قاد إلى الاستشراق، فاللغة العربية هي لغة دينٍ، وثقافةٍ، وفكرٍ جاء ليحلَّ محلَّ الدين النصراني، والثقافة والفكر المنبثقَيْن عن الدين النصراني، فأوجد هذا نزعة التعصب التي قادت إلى استخدام اللغة العربية والعبرية في هذا

(١) نجيب العقيقي: المستشرقون: ٣٠٢/٢، علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير دراسة للعلاقة بين ظاهرتين مع نماذج من المستشرقين المنصرين، الرياض، مكتبة التوبة، ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م: صـ١١.

(٢) أحمد عبد الرحيم السايح: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي- القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م: صـ١٧، علي بن إبراهيم النملة: الاستشراق في خدمة التنصير واليهودية- مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- ع٣ (رجب ١٤١٠هـ= فبراير ١٩٩٠م): صـ٢٣٧- ٢٧٣.

المنحى «الاستشراقي الذي اتَّجه إلى الإسلام، والعربية، وقد قيل: إنك لا تكاد تجد مستشرقًا إلا أجاد اللغة العبرية والعربية معًا»(١).

- وأن البداية الرسمية للاستشراق قد انطلقت من مجمع فيينا الكنسي سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، الذي أوصى بإنشاء عدة كراسي للغات، ومنها: اللغة العربية، ولا سيَّما التشريع الحادي عشر الذي قضى فيه البابا «إكليمنس الخامس» بتأسيس كراسي لتدريس العبرية، واليونانية، والعربية، والكلدانية (السريانية، الآرامية) في الجامعات الرئيسية، وكانت هذه التوصية قائمةً على دعوة «ريموند لول» لإنشاء كراسي للغة العربية في أماكن مختلفةٍ. وينقل عبد اللطيف الطيباوي عن «رادشل» في كتاب له عنوانه: الجامعات في أوربا في القرون الوسطى أن «الغرض من هذا القرار كان تنصيريًّا صرفًا، وكنسيًّا لا علميًّا»(٢).
- وأن الاستشراق قد استشرى، ونال رعاية الكنيسة ومباركتها، عندما ثبت فشل الحروب العسكرية من خلال انحسار المدِّ الغربي الصليبي بعد جهود قرنَيْن من الزمان، فاتَّجهت الكنيسة الغربية إلى التنصير من

(١) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: التبشير والاستشراق أحقاد على النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وبلاد الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٤١١هـ= ١٩٩١م: صـ٤٥.

(٢) عبد اللطيف الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، دراسة نقدية - ترجمة وتقديم: قاسم السامرائي - الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، ١٤١١هـ= ١٩٩١م: ١٨٣، علي ابن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٣.

خلال الفكر، والثقافة، والعلم، فكان التوجُّه إلى ما نسمِّيه اليوم بالغزو الفكري في تحقيق ما فشل فيه سلاح الغزو الحربي. هذا الغزو الذي اتَّخذ من الاستشراق منطلقًا له، سعى من خلاله إلى تشويه الإسلام بطرقٍ شتَّى، لا تتعدَّى كونها جملة من الإسقاطات.

وكان الهدف من هذه الدعوة هو أن تؤتي محاولات التنصير ثمارها بنجاحٍ، من خلال تعلّم لغات المسلمين، وقد عبَّر عن هذه الثمار في دعوة «لول» بارتداد العرب إلى النصرانية من الإسلام، كما كان «غريغوري العاشر» يأمل في ارتداد المغول إلى النصرانية، وقبله كان «الإخوة الفرنسيسكان»، قد توغَّلوا في أعماق آسيا، يدفعهم حماسهم التنصيري، ومع أن آمالهم لم تتحقَّق في وقتها، إلا أن الروح التنصيرية قد تنامت منذئذٍ(١).

وهذا يعني -بتعبيرٍ أوضح-: «إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين النصراني»؛ وهذا ممَّا أدى إلى الاستنتاج أن التنصير هو الأصل الحقيقي للاستشراق، «وليس العكس صحيحًا كما يذهب أغلب الباحثين»، والدلائل التي ذكرت في ثنايا هذه الدراسة تؤيِّد ذلك وتدعمه(٢).

---

(١) محمود حمدي زقزوق: الإسلام والاستشراق، تأليف: نخبة من العلماء المسلمين، جدة، عالم المعرفة، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م: صـ٧١- ١٠٢، علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٤.

(٢) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: صـ٣٥، ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية: صـ٤٤، علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٥.

ومن هذا المنطلق يفهم التوجّه إلى تعريف المستشرقين بأنهم «الذين يقومون بهذه الدراسات من غير الشرقيِّين، ويقدمون الدراسات اللازمة للمبشرين؛ بغية تحقيق أهداف التبشير، وللدوائر الاستعمارية بغية تحقيق أهداف الاستعمار»(١).

وقد انتظم الاستشراق في الفاتيكان، وانتشر واستمرَّ على أيدي البابوات، والأساقفة، والرهبان، فكان رجال الدين النصراني «-ومجمعهم الفاتيكان يومئذٍ- يؤلفون الطبقة المتعلمة في أوربا، ولا سبيل إلى إرساء نهضتها إلا على أساسٍ من التراث الإنساني الذي تمثلته الثقافة العربية، فتعلَّموا العربية، ثمَّ اليونانية، ثمَّ اللغات الشرقية؛ للنفوذ منها إليه...»، وكذلك لمقارعة فقهاء المسلمين، واليهود، والرد عليهم، وتدريب أدلاء يتخاطبون بالعربية؛ للقيام على خدمة مرتادي بيت المقدس من النصارى، ويطلق عليهم «الحجاج»، فأسَّس البابا جمعية الجوالين سنة ٦٤٨هـ- ١٢٥٠م، وطبعت بعد ذلك أدلة الحج، وفيها الأبجدية العربية، وطريقة النطق بها، وخريطة لمدينة القدس، ورسوم للزي العربي، لا سيما اللبناني، يقول نجيب العقيقي في هذا: «فكان أول ما عرفت أوربا من الطباعة العربية»، وبهذا فقد أصبح الاستشراق أقرب الطرق، وأسهلها للتنصير(٢).

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: صـ٥٠، علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٥.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون: ١/ ١٠٤، علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٦.

وهناك مَنْ يرى التداخل بين التنصير والاستعمار في الإفادة من الاستشراق، بحيث يقال: إن الهدف من الاستشراق هو «التمهيد للاستعمار الزاحف... حتى يمكن للمستعمرين التعامل مع الشعوب المغلوبة المنهوبة على ضوء ما عرفوه عنها»، وفي هذا شيءٌ من الاقتصار على هدفٍ من أهداف الاستشراق، يخدم مجال الباحث في بحثه، دون النظر إلى الأهداف الأخرى؛ ويؤدي هذا إلى قصر الأهداف على الهدف الديني التنصيري، الأمر الذي ينبغي ألا يكون.

ومن المهمِّ هنا: النظرة إلى التداخل في الأهداف، مع القدرة على التمييز بينها، وأن هذه الأهداف إنَّما تسعى إلى الإفادة من بعضها في تحقيق غاياتها، فالهدف الديني –ومنه: التنصير– للاستشراق يتداخل مع الأهداف الأخرى كالاستعمار، والهدف السياسي، بل والهدف الاقتصادي، والتجاري، ثم الهدف العلمي؛ وذلك لتعذر التخلِّي عن الخلفية الثقافية القائمة على الدين في النظر إلى الثقافات الأخرى.

وهذا ما جعل بعض المستشرقين ينظرون إلى الشرق نظرة فوقية مدعيًا أن علوَّ الغرب إنَّما يعود إلى الديانة النصرانية، بينما يعود تخلف الشرق وبالتالي دونيته لتمسكه بالإسلام(١).

وقد استمرت هذه النظرة الفوقية المنبعثة من الدين، وغذتها كذلك النظرة العرقية، إلى وقتنا الحاضر، وجوهر الاستشراق هو التمييز الذي يستحيل اجتثاثه بين الفوقية الغربية، والدونية الشرقية، ثمَّ إنَّ هذا الاستشراق في تناميه وفي تاريخه اللاحق، قد عمَّق هذا التمييز، بل أعطاه صلابةً، وثباتًا.

---

(١) علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٧.

بل وربَّما كان هذا الشعور أحد مسوغات الاستعمار الذي جثم على الدول المستعمرة ردحًا من الزمن، بحجة عدم قدرة الشعوب الشرقية على حكم نفسها، فاحتاجت إلى الوصاية الغربية عليها(١).

الدافع الاستعماري:

بعد أن انهزم الغرب في حروبه الصليبية على العالم الإسلامي، وكانت شديدة الوطأة على الغرب من كافة النواحي، العقدية، والنفسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية، إلا أن الغرب بدأ يعيد حساباته، ويخطِّط للاحتلال، والغزو مرةً أخرى، ولكن في هذه المرة يكون بشكلٍ آخر، واستراتيجيةٍ مختلفةٍ، حيث لجأ هذا العدو إلى تأسيس مراكز وأكاديميات مختصة بشؤون العالم الإسلامي، وصرف جهودًا جبارة، وأموالًا طائلةً؛ لتكون مرافقة مع استعمارها للأمة وبلادها.

لقد درست هذه المراكز حال الأمة الإسلامية عقديًّا، وجغرافيًّا، واقتصاديًّا، وعسكريًّا، وعرفت نقاط الضعف فيها، ودرستها دراسةً عميقةً، وواعيةً، فبدأ الاحتلال العسكري مرةً أخرى، من خلال تلك النقاط، وكان احتلالًا عسكريًّا، وفكريًّا في آنٍ واحدٍ، وبعد أن تمركزت قوتهم في العالم الإسلامي، بدأ الاحتلال الفكري، أو الغزو الفكري لعقول أبناء الأمة ونفوسها، وذلك بإظهار تفوقهم العلمي، والتقني، وتخلف المسلمين في ذلك، وكذا بثّ روح الضعف، والوهن في نفوسهم؛ لقتل روح المقاومة، والتمسك بدينهم، وإظهار هذا الدين بصورةٍ مشوَّهةٍ غير صحيحةٍ؛ ممَّا كان له أثره الخطير في الأمة، فقد تأثَّر

(١) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: صـ٤٦، علي بن إبراهيم الحمد النملة: المستشرقون والتنصير: صـ١٧.

جمعٌ غفيرٌ من أبنائها بهذه الوسائل، وقد ساعدهم على ذلك حصولهم على الثروات العلمية الإسلامية في البلاد المستعمرة، وتمكّنهم من دراسة علومها في اللغة، والأدب، والدِّين، والفقه، والسيرة، واستطاعوا أن يخرجوا من بطون هذه الكتب نماذج من الأدب الوضيع، والفكر المنحرف، والعقيدة الفاسدة، والتركيز عليها، وتوصيلها إلى المثقفين والدارسين من أبناء الأمة على أنها الإسلام، فكان وسيلةً قويةً لتلك الدول على الاحتلال العسكري، والبقاء لفتراتٍ أطول في ديار المسلمين، والاستيلاء على ثرواتهم وتسخيرها في مصالحهم المعيشية، والتقنية، والعسكرية.

هذا بالإضافة إلى الدور الذي قام به هؤلاء المستشرقون في إفشاء روح الإقليمية، والعنصرية بين المسلمين، والتركيز على إثارة الفتن القومية بين الشعوب، كافتخار العربي بالعروبة، والتركي بالتركية، والمصري بالفرعونية، والكردي بالكردية، والفارسي بالفارسية وهكذا، فكان كل ذلك مِعْول هدمٍ، وخرابٍ، لذلك البناء المتين الذي أرسى قواعده الرسول -صلى الله عليه وسلم- والصحابة -رضوان الله عليهم-، والعمالقة من أبناء الإسلام على مرِّ العصور، والأزمان، رغم أن الدِّين الإسلامي جاء وأزال كلَّ هذه التصورات التي عدَّها صفات جاهلية لا تتناسب مع الرسالة الربانية(١).

ثمَّ لما تمَّ لهم الاستيلاء العسكري، والسيطرة السياسية، كان من دوافع الدراسات الاستشراقية: الرغبة بإضعاف المقاومة الروحية، والمعنوية في نفوس المسلمين، وبثّ الوهن، والارتباك في تفكيرهم، وكان لهم في ذلك وساوس كثيرة، تسلَّلوا بها إلى نفوس أبناء المسلمين، من قبيل التشكيك بفائدة

(١) فالح بن محمد بن فالح الصغير: الاستشراق وموقفه من السنة النبوية: صـ١١.

ما في أيدي المسلمين من تراثٍ، وبما عندهم من عقيدةٍ، وشريعةٍ، وقيمٍ إنسانيةٍ.

والغرض من ذلك: أن يفقدوا ثقتهم بأنفسهم، ويرتموا في أحضان الغرب، يستجدون منه المقاييس الأخلاقية، والمبادئ، والعقائد، والحلول لمشاكلهم الحياتية، والعادات، والتقاليد، وأنواع السلوك؛ ليتم للغرب بذلك إخضاع المسلمين لحضارته، وثقافته إخضاعًا كاملًا؛ وليتسنى لهم تشتيت شمل الأمة الإسلامية الواحدة، التي تجمعها رابطة واحدة، هي وحدة الدين الذي يهيمن على جميع مشاعر الإنسان الداخلية، وسلوكه الظاهر(١).

ولقد خدم الاستشراق الأهداف السياسية التوسعية للدول الغربية، فقد سار المستشرقون في ركاب الاحتلال، وهم كما أطلق عليهم الأستاذ/ محمود شاكر -رحمه الله- حملة هموم الشمال المسيحي، فقدموا معلومات موسعة ومفصلة عن الدول التي رغبت الدول الغربية في استعمارها، والاستيلاء على ثرواتها، وخيراتها. وقد اختلط الأمر في وقتٍ من الأوقات بين المحتل والمستشرق، فقد كان كثيرٌ من موظفي الاحتلال على دراية بالشرق لغةً، وتاريخًا، وسياسةً، واقتصادًا، وقد أصدر -على سبيل المثال- مستشرق بريطاني كتابًا من أربعة عشر مجلدًا بعنوان: «دليل الخليج: الجغرافي، والتاريخي»، وكان موظف الحكومات المحتلة لا يحصل على الوظيفة في إدارة الاحتلال، ما لم يكن على دراية بالمنطقة التي سيعمل بها(٢).

---

(١) عبد الرحمن بن حسن حبنَّكة: أجنحة المكر الثلاثة: صـ١٣٠.

(٢) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ١٢.

واستمرَّ الارتباط بين الدراسات العربية الإسلامية، وبين الحكومات الغربية حتى يومنا هذا، بالرغم من أنه قد يوجد عددٌ محدَّدٌ جدًّا من الباحثين الغربيِّين دفعهم حبُّ العلم لدراسة الشرق، أو العالم الإسلامي. ومن الأدلة على هذا الارتباط: أن تأسيس مدرسة الدراسات الشرقية، والأفريقية بجامعة لندن، قد أُسّسَت بناءً على اقتراحٍ من أحد النواب في البرلمان البريطاني. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، رأت الحكومة البريطانية أن نفوذها في العالم الإسلامي بدأ ينحسر، فكان لا بُدَّ من الاهتمام بالدراسات العربية الإسلامية، فكلَّفت الحكومة البريطانية لجنةً حكوميةً برئاسة الإيرل سكاربورو Scarbrough لدراسة أوضاع الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات البريطانية، ووضعت اللجنة تقريرها حول هذه الدراسات، وقدَّمت فيه مقترحاتها لتطوير هذه الدراسات واستمرارها(١).

وفي عام ١٩٦١م كوَّنت الحكومة البريطانية لجنةً أخرى برئاسة السير وليام هايترSir William Hayter لدراسة هذا المجال المعرفي، وقامت اللجنة باستجواب عددٍ كبيرٍ من المتخصصين في هذا المجال، كما زارت أقسام الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات البريطانية، وفي عشر جامعاتٍ أمريكيةٍ، وجامعتَيْن كنديتَيْن، وكانت زيارتها للولايات المتحدة بقصد التعرُّف على التطورات التي أحدثها الأمريكيُّون في هذا المجال، وكان ذلك بتموينٍ من مؤسستي: روكفللر وفورد(٢).

(١) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ١٢.

(٢) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ١٣.

وممَّا يؤكِّد ارتباط الدراسات العربية الإسلامية بالأهداف السياسية الاحتلالية (رغم انحسار الاستعمار العسكري) أن الحكومة الأمريكية موَّلت عددًا من المراكز للدراسات العربية الإسلامية في العديد من الجامعات الأمريكية، وما زالت تموِّل بعضها إما تمويلًا كاملًا، أو تمويلًا جزئيًّا وفقًا لمدى ارتباط الدراسة بأهداف الحكومة الأمريكية وسياستها.

كما يستضيف الكونجرس -وبخاصةٍ لجنة الشؤون الخارجية- أساتذة الجامعات، والباحثين المتخصصين في الدراسات العربية الإسلامية؛ لتقديم نتائج بحوثهم، وإلقاء محاضراتٍ على أعضاء اللجنة، كما ينشر الكونجرس هذه المحاضرات والاستجوابات نشرًا محدودًا لفائدة رجال السياسة الأمريكيِّين(١).

ومن خلال معرفتنا لهذا الدافع نستطيع معرفة الهدف النهائي المرجو المرتبط به.

فهدف هذا الدافع: هو السيطرة على بلدان العالم الإسلامي، وعلى الشعوب الإسلامية، طمعًا باستغلال الأرض، واستعباد الناس، والسيطرة على كل شيءٍ وسيلة لتحقيق أهواء النفوس وشهواتها، وأن يكن لها العلو في الأرض(٢).

والحق أن الاستشراق صار ملازمًا للاستعمار أينما حلَّ وأناخ، وتوسع مجاله، ونطاقه بتوسّع احتلاله، واغتصابه لحقوق الشعوب عامةً، والمسلمين خاصةً؛ حيث يقول المستشرق الهولندي سنوك هرجرنجي عن ذلك بقوله: «إن الشريعة الإسلامية موضوعٌ مهمٌّ للدراسات الاستشراقية، ليس فقط لأسبابٍ

(١) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ١٢.

(٢) عبد الرحمن بن حسن حبنَّكة: أجنحة المكر الثلاثة: صـ١٣٠.

تجريديةٍ [نظريةٍ] متعلقةٍ بتاريخ القانون، والحضارة، والدين، ولكن كذلك لأهدافٍ عمليةٍ: وذلك أنَّه كلَّما توثَّقت العلاقات بين أوروبا والشرق الإسلامي، وكلَّما زاد عدد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوروبية، زادت الأهمية بالنسبة لنا نحن الأوروبيِّين؛ لنتعرف على الحياة الفكرية، وعلى الشريعة، وعلى خلفية المفاهيم الإسلامية»(١).

الدافع الاقتصادي:

وهو من الدوافع التي ساعدت على تنشيط حركة الاستشراق، وهي أن الدول الغربية بعد أن تعرَّفت على المنطقة الإسلامية، وتعرَّفت على ثرواتها، وخيراتها، أرادت أن تفتح مع هذه المنطقة صفحةً أخرى، أو علاقةً أخرى من العلاقات التي تروي اقتصادهم، وتدعم مصانعهم، وشركاتهم، وبالتالي تسهِّل عليهم حركة التطور العلمي، والتقني، وذلك بالاتصال المباشر مع العالم الإسلامي اقتصاديًّا، وذلك باستيراد ما تفتقر إليه من المواد الخام الطبيعية، وبأسعارٍ زهيدةٍ وبَخْسةٍ؛ حفاظًا على مستوى التصنيع، والتقنية عندهم، وإبقاءً لمستوى التراجع، والتخلف في منطقتنا الإسلامية، التي كانت مهدًا للصناعات، والاختراعات، وجعلها منطقة استهلاك فحسب، وبذلك يتمُّ القضاء كليًّا على الصناعات الوطنية، والمحلية.

ومن أهم نتائج هذا الدافع وثمراته: أن أموال المسلمين ومصالحهم صارت بأيدي الغربيِّين، فمعظم أغنياء المسلمين، وأصحاب الثروات الكبيرة، والأرصدة العالية، يودعون أموالهم، وأسهمهم في بنوك الغربيِّين، حيث لا

(١) أحمد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق: صـ٥٣، فالح بن محمد بن فالح الصغير: الاستشراق وموقفه من السنة النبوية: صـ١٢.

يصل إليهم من هذه البنوك إلا النُّزُر اليسير من الأرباح، أما الغربيون فيربحون من وراء هذه الأرصدة الملايين والمليارات، وإذا صارت هناك إشكالات، أو مشكلات سياسية بين هذه الدول الغربية والدول الإسلامية؛ ربَّما تؤدي بتلك الأموال المودعة إلى التجميد، أو إلى الاستيلاء عليها، ولا يحقُّ لأصحابها استرجاعها، أو المطالبة بها، كما حدث في الآونة الأخيرة في أمريكا وبعض الدول الغربية الأخرى، التي اتّهمت مؤسسات وشركات ومنظمات خيرية بدعمها للإرهاب؛ من أجل حيازة أرصدتهم، وأموالهم، وكل ذلك ثمرة واضحة لمخططات المستشرقين مع دولهم الاستعمارية لنهب ثروات الأمة الإسلامية بشتَّى السُّبُل والوسائل(١).

ولا ننسى أنه عندما بدأت أوروبا نهضتها العلمية، والصناعية، والحضارية، وكانت في حاجة إلى المواد الأوليَّة الخام لتغذية مصانعها، كما أنَّهم أصبحوا بحاجةٍ إلى أسواق تجاريةٍ لتصريف بضائعهم كان لا بُدَّ لهم أن يتعرَّفوا إلى البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية، ويمكن أن تكون أسواقًا مفتوحةً لمنتجاتهم. فكان الشرق الإسلامي والدول الأفريقية والآسيوية هي هذه البلاد، فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية، ودراساتهم الاجتماعية، واللغوية، والثقافية، وغيرها.

ولم يتوقف الهدف الاقتصادي عند بدايات الاستشراق، فإن هذا الهدف ما زال أحد أهم الأهداف لاستمرار الدراسات الاستشراقية. فمصانعهم ما تزال تنتج أكثر من حاجة أسواقهم المحلية، كما أنهم ما زالوا بحاجةٍ إلى المواد الخام المتوفرة في العالم الإسلامي؛ ولذلك فإن بعض أشهر البنوك الغربية

(١) فالح بن محمد بن فالح الصغير: الاستشراق وموقفه من السنة النبوية: صـ١٤.

(لويد وبنك سويسرا) تصدر تقارير شهرية هي في ظاهرها تقارير اقتصادية، ولكنها في حقيقتها دراسات استشراقية متكاملة، حيث يقدم التقرير دراسة عن الأحوال الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية للبلاد العربية الإسلامية؛ ليتعرَّف أرباب الاقتصاد، والسياسة على الكيفية التي يتعاملون بها مع العالم الإسلامي.

وضمن هذا الدافع وجهت المؤسسات الاقتصادية الغربية، من يهتمون بالدراسات الاستشراقية؛ ليكونوا وسطاءهم، ورسلهم، ومستشاريهم، والمترجمين لهم في مهماتهم، ومطالبهم الاقتصادية، أو أبدت استعدادها لاستخدام مَنْ يعمل لهم في هذا المجال، فاتَّجه فريق من الغربيِّين لهذه الدراسات؛ طمعًا بأن يجدوا أعمالًا لهم لدى المؤسسات الاقتصادية.

وظهر -أيضًا- فريقٌ من الباحثين العلميِّين اهتمَّ بالدراسات الاستشراقية، ليقوم بنشر كتب التراث الإسلامي، والاستفادة من نشرها في تحصيل الثروات التي يحصل عليها الناشرون عادةً.

وهكذا صارت الدراسات الاستشراقية وسيلةً من وسائل كسب المال لكثيرٍ من المستشرقين(١).

الدافع السياسي:

وهنالك دافعٌ آخر أخذ يتجلَّى في عصرنا الحاضر بعد استقلال أكثر الدول العربية والإسلامية، ففي كل سفارةٍ من سفارات الدول الغربية لدى هذه الدول سكرتير، أو ملحق ثقافي يُحْسن اللغة العربية؛ ليتمكَّن من الاتصال برجال الفكر، والصحافة، والسياسة، فيتعرَّف إلى أفكارهم، ويبثّ فيهم من الاتِّجاهات

(١) عبد الرحمن بن حسن حبنَّكة: أجنحة المكر الثلاثة: صـ١٣١.

السياسية ما تريده دولته، وكثيرًا ما كان لهذا الاتصال أثره الخطير في الماضي، حين كان السفراء الغربيون -ولا يزالون في بعض البلاد العربية والإسلامية- يبثُّون الدسائس للتفرقة بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبين الدول العربية والدول الإسلامية، بحجة توجيه النصح، وإسداء المعونة، بعد أن درسوا -تمامًا- نفسية كثيرين من المسؤولين في تلك البلاد، وعرفوا نواحي الضعف في سياستهم العامة، كما عرفوا الاتِّجاهات الشعبية الخطيرة على مصالحهم، واستعمارهم(١).

وقد ظهر -حقًّا- في الآونة الأخيرة في معظم الدول الإسلامية والعربية نوعٌ من التواصل الثقافي بين الملحقيات الثقافية للدول الغربية، والطبقات المثقفة من الدول الإسلامية التي تحتضن هذه الملحقيات، وتعقد الندوات العلمية، والحفلات الأدبية، بحجة تبادل الآراء والأفكار، أو ما سُمِّي في العصر الحديث بالتقارب الديني، أو الحوار الحضاري، والهدف الأول والأخير من انعقاد هذه الندوات: هو تحويل المسلمين عن دينهم، وإيجاد طبقةٍ من المثقفين، ولا سيَّما الذين يشغلون مناصب عالية في الدولة من تحقيق بعض أهدافهم السياسية في كسر الحواجز، وإزالة العراقيل التي تحول دون الوصول إلى مآربهم في تلك البلاد، وأيضًا هناك مطلبٌ مهمٌّ جدًّا يقصدونه هؤلاء من وراء ملحقياتهم، وهو: اختيار بعض الناس من أبناء البلاد التي هم فيها؛ ليكونوا لهم عيونًا لخدمة مصالحهم في جميع المجالات(٢).

---

(١) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون: صـ٢٣- ٢٤.

(٢) فالح بن محمد بن فالح الصغير: الاستشراق وموقفه من السنة النبوية: صـ١٤.

ويقول عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة عن دور المستشرقين في هذه المرحلة: ليقوموا بمهماتٍ سياسيةٍ متعددةٍ مرتبطةٍ بالشعوب الإسلامية، وبلدان العالم الإسلامي، ومنها ما يلي:

١- الاتصال بالسياسيِّين، والتفاوض معهم؛ لمعرفة آرائهم، واتِّجاهاتهم.

٢- الاتصال برجال الفكر والصحافة؛ للتعرف على أفكارهم، وواقع بلادهم.

٣- بثُّ الاتجاهات السياسية التي تريدها دولهم، فيمن يريدون بثَّها فيهم، وإقناعهم بها.

٤- الاتصال بعملائهم وأجرائهم الذين يخدمون أغراضهم السياسية داخل شعوب الأمة الإسلامية.

وكم بثَّ حاملو هذا الدافع في شعوب المسلمين من أفكار؟! وكم دسوا من دسائس؟! وكم استخدموا من أجراء لإثارة الفتن، وإقامة ثورات وانقلابات عسكرية؟! إلى غير ذلك من أعمالٍ[1].

الدافع الثقافي العلمي:

من أبرز أهداف الاستشراق: نشر الثقافة الغربية انطلاقًا من النظرة الاستعلائية التي يُنظَر بها إلى الشعوب الأخرى، ومن أبرز المجالات الثقافية: نشر اللغات الأوروبية، ومحاربة اللغة العربية، وصبغ البلاد العربية والإسلامية بالطابع الثقافي الغربي، وقد نشط الاستشراق في هذا المجال أيَّما نشاطٍ، فأسس المعاهد العلمية والتنصيرية في أنحاء العالم الإسلامي، وسعى إلى نشر ثقافته وفكره من خلال هؤلاء التلاميذ، وقد فكّر نابليون في ذلك

(١) عبد الرحمن بن حسن حبنَّكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: صـ١٣١.

حينما طلب من خليفته على مصر أن يبعث إليه بخمسمائة من المشايخ ورؤساء القبائل؛ ليعيشوا فترةً من الزمن في فرنسا، «يشاهدون في أثنائها عظمة الأمة (الفرنسية)، ويعتادون على تقاليدنا، ولغتنا، وعندما يعودون إلى مصر، يكون لنا منهم حزب يضمّ إليه غيرهم»[(١)]، ولم يتم لنابليون ذلك، ولكن لمَّا جاء محمد علي أرسل بعثةً من أبناء مصر النابهين يقودهم «رفاعة رافع الطهطاوي»، وقد قال محمود شاكر: إن هؤلاء «يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزبًا لفرنسا، وعلى مرِّ الأيام يكبرون، ويتولَّون المناصب صغيرها، وكبيرها، ويكون أثرهم أشد تأثيرًا في بناء جماهير كثيرة تبثُّ الأفكار التي يتلقَّونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر..» [(٢)].

وقد حرص الغرب على الغزو الثقافي من خلال التغريب الفكري بعدة طرقٍ، منها:

١- التعليم من حيث المنهج، ومن حيث المادة العلمية.

٢- وفي مجال الإعلام: تُستَغل كل وسائل الإعلام المتاحة، وخاصة أفلام السينما والتلفاز تأثير غير مباشر.

---

(١) محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م: صـ١٢٧.

(٢) محمد محمد حسين: حصوننا مهددة من داخلها في وكر الهدامين، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ= ١٩٧٨م: صـ٣٦.

وظهر الهدف الثقافي من خلال الدعوة إلى العالميَّة، وإلى محاربة الفصحى، والحداثة في الأدب والفكر؛ حيث نادى البعض بتحطيم السائد والموروث، وتفجير اللغة، وغير ذلك من الدعوات.

ويجب ألا ننسى أنه ما كان لأوروبا أن تنهض نهضتها، دون أن تأخذ بأسباب ذلك، وهو دراسة منجزات الحضارة الإسلامية في جميع المجالات العلمية، فقد رأى زعماء أوروبا «أنه إذا كانت أوروبا تريد النهوض الحضاري والعلمي، فعليها بالتوجُّه إلى بواطن العلم، تدرِّس لغاته، وآدابه، وحضارته»، وبالرجوع إلى قوائم الكتب التي تُرجمت إلى اللغات الأوروبية، لعرفنا حقيقة أهمية هذا الهدف من أهداف الاستشراق، فالغربيون لم يتركوا مجالًا كتب فيه العلماء المسلمون حتى درسوا هذه الكتابات، وترجموا عنها، وأخذوا منها، وقد أشار رودي بارت Rudi Paret –في كتابه عن الدراسات العربية الإسلامية– إلى إمكانية أن تقوم الأمة الإسلامية في العصر الحاضر بدراسة الغرب، فيما يمكن أن يطلق عليه «علم الاستغراب»، فإن المسلمين في نهضتهم الحاضرة بحاجةٍ إلى معرفة الإنجازات العلمية التي توصَّل إليها الغرب عبر قرونٍ من البحث، والدراسة، والاكتشافات العلمية، والاستقرار السياسي، والاقتصادي(١).

(١) مازن بن صلاح مطبقاني: الاستشراق: صـ١١.

وتنقسم أهداف المستشرقين في جملتهم من الدراسات الاستشراقية إلى ثلاثة أقسام:

أ- هدف علمي مشبوه، ويهدف إلى:

١- التشكيك بصحة رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- ومصدرها الإلهي، فجمهورهم ينكر أن يكون الرسول نبيًّا موحى إليه من عند الله -جلَّ شأنه- ويتخبطون في تفسير مظاهر الوحي التي كان يراها أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أحيانًا، وبخاصة السيدة عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها-. فمن المستشرقين: من يرجع ذلك إلى «صَرَعٍ» كان ينتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- حينًا بعد حينٍ، ومنهم: مَنْ يفسرها بمرضٍ نفسيٍّ وهكذا.. كأن الله -عزَّ وجلَّ- لم يرسل نبيًّا قبله، حتى يصعب عليهم تفسير الوحي، ولمَّا كانوا كلهم ما بين يهود، ومسيحيين، يعترفون بأنبياء التوراة، وهم كانوا أقل شأنًا من محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- في التاريخ، والتأثير، والمبادئ التي نادى بها، كان إنكارهم لنبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- تعنتًا لمبعثه، وهذا التعصب الديني الذي يملأ نفوس أكثرهم كرهبان، وقساوسة، ومبشرين.

٢- ويتبع ذلك إنكارهم أن يكون القرآن الكريم كتابًا منزلًا من عند الله -عز وجل-، وحين يفحمهم ما ورد فيه من حقائق تاريخيةٍ عن الأمم الماضية، مما يستحيل صدوره عن أميٍّ مثل محمد -صلى الله عليه وسلم-، يزعمون ما زعمه المشركون الجاهليون في عهد الرسول من أنه استمد هذه المعلومات من أناسٍ كانوا يخبرونه بها، ويتخبَّطون في

ذلك تخبُّطًا عجيبًا، وحين يفحمهم ما جاء في القرآن من حقائق علميةٍ لم تُعْرف وتُكْتشف إلا في هذا العصر، يرجعون ذلك إلى ذكاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقعون في تخبُّطٍ أشد غرابة من سابقه.

٣- ويتبع إنكارهم لنبوة الرسول وسماوية القرآن، إنكارهم أن يكون الإسلام دينًا من عند الله، وإنَّما هو ملفَّق -عندهم- من الديانتين: اليهودية، والمسيحية، وليس لهم في ذلك مستند يؤيِّده البحث العلمي، وإنَّما هي ادِّعاءات تستند على بعض نقاط الالتقاء بين الإسلام والديانتين السابقتين.

ويلاحظ أن المستشرقين اليهود أمثال: «جولد زيهر»، و«شاخت» هم أشدّ حرصًا على ادِّعاء استمداد الإسلام من اليهودية وتأثيرها فيه، أما المستشرقون المسيحيون فيجرون وراءهم في هذه الدعوى؛ إذ ليس في المسيحية تشريعٌ يستطيعون أن يزعموا تأثُّر الإسلام به، وأخذه منه، وإنَّما فيها مبادئ أخلاقية زعموا أنها أثَّرت في الإسلام، ودخلت عليه منها، فكان المفروض عندهم في الديانات الإلهية أن تتعارض مبادئها الأخلاقية، ولم يدركوا أن الرسالات السماوية مصدرها واحدٌ، وهو الله تعالى.

٤- التشكيك في صحة الحديث النبوي الذي اعتمده علماؤنا المحقّقون، ويتذرَّع هؤلاء المستشرقون بما دخل على الحديث النبوي من وضعٍ، ودسٍّ، متجاهلين تلك الجهود التي بذلها علماؤنا لتنقية الحديث الصحيح من غيره، مستندين إلى قواعد بالغة الدقَّة في التثبُّت والتحرِّي، ممَّا لم

يعهد عندهم في ديانتهم عشر معشاره في التأكُّد من صحة الكتب المقدسة عندهم.

والذي حملهم على ركوب متن الشطط في دعواهم هذه، ما رأوه في الحديث النبوي الذي اعتمده علماؤنا من ثروةٍ فكريةٍ، وتشريعيةٍ مدهشةٍ، وهم لا يعتقدون بنبوة الرسول، فادَّعوا أن هذا لا يُعْقل أن يصدر كله عن محمدٍ الأمي، بل هو عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى، فالعقدة النفسية عندهم هي عدم تصديقهم بنبوة الرسول، ومنها تنبعث كل تخبطاتهم، وأوهامهم.

٥- التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي الذاتية، ذلك التشريع الهائل الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور، لقد أسقط في أيديهم حين اطّلاعهم على عظمته، وهم لا يؤمنون بنبوة الرسول، فلم يجدوا بُدًّا من الزعم بأن هذا الفقه العظيم مستمدٌ من الفقه الروماني، أي: أنه مستمد منهم –الغربيِّين– وقد بيَّن علماؤنا الباحثون تهافتَ هذه الدعوى.

٦- التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي؛ لتظل عالةً على مصطلحاتهم التي تُشعرنا بفضلهم، وسلطانهم الأدبي علينا، وتشكيكهم في غنى الأدب العربي، وإظهاره مجدبًا فقيرًا؛ لنتجه إلى آدابهم، وذلك هو الاستعمار الأدبي الذي يبغونه مع الاستعمار العسكري الذي يرتكبونه.

تلك هي الأهداف العلمية التي يعمل لها أكثرهم، أو جمهرتهم الساحقة.

ب- الأهداف الدينية والسياسية، وتتلخَّص فيما يلي:

١- تشكيك المسلمين بدينهم، وقرآنهم، وشريعتهم، وفقههم، ففي ذلك هدفان: ديني، واستعماري.

٢- تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، يدعون أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، ولم يكن لهم إبداع فكري، ولا ابتكار حضاري، وكان في حضارتهم كل النقائص، وإذا تحدثوا بشيءٍ عن حسناتها -وقليلًا ما يفعلون- يذكرونها على مضضٍ مع انتقاصٍ كبيرٍ.

٣- إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبثّ روح الشكِّ في كلِّ ما بين أيديهم من قيمٍ، وعقيدةٍ، ومُثُلٍ عليا؛ ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم، فيكونوا عبيدًا لها، يجرُّهم حبها إلى حبهم، أو إضعاف روح المقاومة في نفوسهم.

٤- إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم، وكذلك يفعلون في البلاد الإسلامية، ويجتهدون لمنع اجتماع شملها، ووحدة كلمتها بكلِّ ما في أذهانهم من قدرةٍ على تحريف الحقائق، وتصيّد الحوادث الفردية في التاريخ؛ ليصنعوا منها

تاريخاً جديدًا يدعو إلى ما يريدون من منع الوحدة بين البلاد العربية، والتفاهم على الحق والخير بين جماهيرها(١).

ج- البحث العلمي الخالص:

فمن المستشرقين نفرٌ قليلٌ جدًّا أقبلوا على الاستشراق بدافعٍ من حب الاطِّلاع على حضارات الأمم، وأديانها، وثقافتها، ولغاتها.

وكان هؤلاء النفر من المستشرقين أقلَّ من غيرهم خطأ في فهم الإسلام وتراثه؛ لأنهم لم يكونوا يتعمدون أن يدسوا، أو يحرِّفوا؛ لذلك جاءت بحوث هؤلاء أقرب إلى الحقِّ، وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين، بل منهم مَنِ اهتدى إلى الإسلام، وآمن به، وانتمى إلى الأمة الإسلامية.

على أن هؤلاء قلَّما يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكِّنهم من الانصراف إلى الدراسات الاستشراقية بأمانةٍ، وإخلاصٍ؛ لأن أبحاثهم المجرَّدة عن الهوى الجانح، لا تلقى رواجًا، لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامة الباحثين الغربيِّين.

بل كثيرًا ما يتعرض هؤلاء لمضايقاتٍ ومقاوماتٍ شديدةٍ، من قِبَل رجال الدين، ورجال السياسة في بلدانهم.

ولمَّا كان الاستشراق النزيه الراغب بالبحث العلمي الحيادي المتجرِّد عن الهوى الجانح، لا يُدِرُّ على مرتاديه مكاسب، ومغانم، كان من الطبيعي أن يندر وجود هؤلاء المرتادين في أوساط المستشرقين.

---

(١) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون أهداف الاستشراق ووسائله، مقال منشور على موقع مقالات الألوكة، رقم المقالة (٣٧٠).

ومن خلال معرفتنا لهذا الدافع نستطيع معرفة الهدف النهائي والمرتبط به.

فهدف هذا الدافع: إشباع نهمٍ علميٍّ متجرِّدٍ، وتحصيل معرفةٍ صحيحةٍ تتصل بأمةٍ ذات علمٍ، وحضارةٍ أصيلةٍ.

وهؤلاء مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحقِّ؛ إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية، وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية على حقيقتها، فيتصورونها كما يتصوَّرون مجتمعاتها، ناسين الفروق الطبيعية، والنفسية، والزمنية، التي تفرِّق بين الأجواء التاريخية التي يدرسونها، وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها.

ومن هؤلاء: مَنْ يعيش بقلبه وفكره في جوِّ البيئة التي يدرسها، فيأتي بنتائج تنطبق مع الحقِّ، والصدق، والواقع، ولكن هؤلاء يلقَوْن عنتًا من سائر المستشرقين؛ إذ سرعان ما يتَّهمون بالانحراف عن المنهج العلمي، أو الانسياق وراء العاطفة، أو الرغبة في مجاملة المسلمين والتقرّب إليهم، كما فعلوا مع «توماس أرنولد» حين أنصف المسلمين في كتابه العظيم «الدعوة إلى الإسلام»، فقد برهن فيه على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدِّين، على عكس مخالفيهم معهم. هذا الكتاب الذي يعتبر من أدقِّ وأوثق المراجع في تاريخ التسامح الديني في الإسلام، يطعن فيه المستشرقون المتعصبون بأن مؤلفه كان مندفعًا بعاطفةٍ قويةٍ من الحبِّ، والعطف على المسلمين، مع أنه لم يذكر حادثةً إلا أرجعها إلى مصدرها.

ومن هؤلاء: مَنْ يؤدي به البحث الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الإسلام، والدفاع عنه في أوساط أقوامهم الغربيِّين، كما فعل المستشرق الفرنسي الفنان «دينيه»، الذي عاش في الجزائر فأعجب بالإسلام، وأعلن إسلامه، وتسمَّى باسم «ناصر الدين دينيه»، وألَّف مع عالمٍ جزائريٍّ كتابًا عن سيرة الرسول،

وله كتاب «أشعة خاصة بنور الإسلام»، بيَّن فيه تحامل قومه على الإسلام، ورسوله، وقد توفِّي هذا المستشرق المسلم في فرنسا، ونقل جثمانه إلى الجزائر، ودُفِن فيها.

ومنهم –أيضًا–: المستشرق «عبد الكريم جرمانوس»، وهو عالمٌ مجريٌّ، اعتنق الإسلام في الهند، ولد سنة (١٨٨٥م) وتوفِّي سنة (١٩٧٩م)، وكان يتمنَّى أن يعيش مائة عامٍ؛ لأن اللغة العربية –في رأيه– تحتاج إلى مائة سنة لفهمها. كان عضوًا في المجمع اللغوي في القاهرة، أحب الإسلام واللغة العربية وخدمهما، ألف أكثر من مائة وخمسين كتابًا عن الإسلام، منها:

١– الله أكبر.

٢– الحركات الحديثة في الإسلام.

٣– شوامخ الأدب العربي.

٤– معاني القرآن.

٥– دراسات في التركيبات اللغوية العربية.

وقد أجاد عدة لغاتٍ، منها: الإنكليزية، والفارسية، والأردية، والتركية مع العربية.

ومنهم: الطبيب الفرنسي «موريس بوكاي» صاحب كتاب «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة»، الذي أثبت فيه موافقة ما جاء في القرآن لأحدث الحقائق العلمية التي توصَّل إليها الناس بوسائلهم، بخلاف ما في الكتب التي يزعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنها مقدسة.

وغيرهم ممَّن عرفوا الحق، واتَّبعوه[١].

---

(١) عبد الرحمن بن حسن حبنَّكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة: صـ١٣٢– ١٣٤، فالح بن نحمد بن فالح الصغير: الاستشراق وموقفه من السنة النبوية: صـ١٤.

الخاتمة

ممَّا سبق يتضح أن الاستشراق تيارٌ فكريٌّ، يتَّجه صَوْب الشرق؛ لدراسة حضارته، وأديانه، وثقافته، ولغته، وآدابه، من خلال أفكارٍ اتَّسم معظمها بالتعصب، والرغبة في خدمة الاستعمار، وتنصير المسلمين، وجعلهم مسخاً مشوهًا للثقافة الغربية، وذلك ببث الدُّونية فيهم، وبيان أن دينهم مزيجٌ من اليهودية، والنصرانية، وشريعتهم هي القوانين الرومانية مكتوبة بأحرف عربيةٍ، والنيل من لغتهم، وتشويه عقيدتهم، وقِيَمهم، ولكن بعضهم رأى نور الحقيقة فأسلم، وخدم العقيدة الإسلامية، وأثَّرَ في مُحْدثيهم، فبدأت كتاباتهم تجنح نحو العلمية، وتنحو نحو العمق بدلًا من السَّطحية، وربَّما صدر ذلك عن رغبةٍ من بعضهم في استقطاب القوى الإسلامية، وتوظيفها لخدمة أهدافهم الاستشراقية، وهذا يقتضي الحذر عند التعامل مع الفكر الاستشراقي الذي يتدثَّر الآن بدثار الموضوعية.

ولا شكَّ أن الاستشراق مدرسةٌ خطيرةٌ من مدارس الاستعمار وحركات التنصير، فهو يشكِّل معهما مثلثًا خطيرًا يهدِّد العالم الإسلامي في عقيدته، وأخلاقه، واقتصاده، ومجتمعه، وهذا يستدعي من الأمة الانتباهَ، والصحوةَ، وأن تُعِدَّ العُدَّة في كل لحظةٍ؛ لمواجهة أيِّ عدوانٍ فكريٍّ مرتقبٍ، ولا يكون ذلك إلا بالعلم، والمعرفة، والاطّلاع على ثقافة العدو، وكشف زيفها أمام العالم، وهتك الستار الكاذب الذي يتزيَّن به.

كما نخلص إلى أنه يمكن أن يشكِّل الاستشراق تيارًا فكريًّا في جميع مجالات الحياة: في العقيدة، وفي اللغة، وفي التاريخ، وفي الاجتماع، وفي

السياسة، وفي الاقتصاد. حتَّى إنَّ كثيرًا من الذين يكتبون في العالم العربي لا يختلفون في منطلقاتهم عن الكتابات الغربية.

ولعلَّ من هذه التأثيرات أن وسائل الإعلام العربية تطلق باستمرارٍ على الحركات الإسلامية، أو الإسلاميِّين مصطلح الأصوليِّين، أو الأصولية الإسلامية، أو المتشدِّدين، وكأن وسائل الإعلام العربية الإسلامية إنَّما هي مرآة تعكس ما تكتبه الصحف، ووسائل الإعلام الغربية.

ويمكننا أن نضيف إن ما قدمته السينما العربية لمحاربة الثوابت الإسلامية في الأسرة، والأخلاق، يتفوَّق بمئات المرات ما قدمته وسائل الإعلام الغربية، فإن الأفلام الأمريكية لا تُعدُّ شيئًا مذكورًا مقابل ما قدمته السينما العربية، أو وسائل الإعلام العربية الإسلامية من تشويه حقيقة الإسلام، ومسلَّماته.

إننا بحاجة إلى أن نعرفَ الاستشراق القديم، وكذلك الدراسات العربية والإسلامية، والدراسات الإقليمية، أو دراسات المناطق الموجودة في الغرب في الوقت الحاضر، ونحن بحاجة أكثر إلى أن نعرفَ الغرب معرفة وثيقة، حتى نستطيع أن نحافظ على هويتنا في وجه التيارات الفكرية التي تستطيع وسائل الإعلام الغربية نشرها بما لديها من أجهزةٍ قويةٍ، وإمكاناتٍ ضخمةٍ.

فلعلَّنا في المستقبل -نحن المسلمين- لا تتوقف جهودنا على حضور المؤتمرات والندوات التي تعقد للحديث عن العالم العربي والإسلامي، وقضاياه، بل نشارك معهم في مؤتمراتهم وندواتهم التي تخصُّ المجتمعات الغربية، فنقدم لهم الاقتراحات والحلول، فنكون بذلك قد انتقلنا إلى مرحلةٍ جديدةٍ في نقل الإسلام من الوضع الدفاعي، إلى الوضع الذي جاء من أجله

الإسلام «ليخرج الله بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

والاستشراق إذا كان قد حقَّق كثيرًا من أغراضه، فإنه لم يستنفد تلك الأغراض، ولما يعدم الحيلة والوسيلة بعد، ولم ينس عداءه الديني والحضاري مع الإسلام، ونبي الإسلام محمد ﷺ؛ لذلك هو يواصل العمل والتأليف، ويواصل الحوار في الندوات، والاجتماعات الإقليمية، والاجتماعات الدولية، وهو ماضٍ بمؤسساته الضخمة، وإمكاناته المادية الهائلة، والعون الكبير الذي يلقاه من جميع المؤسسات والمنظمات الحكومية وغير الحكومية، ولن يتوقف ولن يقر له قرار حتى يبلغ مراده، وهذا الذي أبلغنا به المولى – عزَّ وجلَّ– بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٢٠]، فيجب أن يكون المسلمون عامة، والعلماء والمفكرين والفقهاء خاصة على وعيٍ ودراية بما يحاك لهم، وما يُبَيَّت لهم بليلٍ وهم غافلون لاهون.

والحقيقة التي يجب أن يعيَها كل متابعٍ لما يصدر عن الاستشراق والمستشرقين أن ما يصدر عنهم هو بعيد عن إصابة الحق؛ لأمرين:

الأول: التعصب الديني الذي استمرَّ لدى ساسة أوروبا وقادتها العسكريِّين حتى إذا دخلت جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى بيت المقدس، قال اللورد «ألنبي» كلمته المشهورة: «الآن انتهت الحروب الصليبية» أي: من الناحية العسكرية.

أما التعصب الديني: فما يزال أثره باقيًا في كثيرٍ مِمَّا يكتب الغَرْبِيُّونَ عن الإسلام وحضارته، وأكثر ما نجد إنصاف الإسلام ورسوله عند العلماء والأدباء الغَرْبِيِّينَ الذين تَحَلَّلُوا من سلطة ديانتهم، ونضرب لذلك مثلًا بكتاب «حضارة العرب» لمؤلفه «جوستاف لوبون»، فإنه أعظم كتاب ألفه الغَرْبِيُّونَ في إنصاف الإسلام وحضارته.

هذا، لأن «غوستاف لوبون» فيلسوف مادي لا يؤمن بالأديان قطعًا، من أجل هذا ومن أجل إنصافه للحضارة الإسلامية، لا ينظر إليه الغَرْبِيُّونَ في أوساطهم العلمية نظر التقدير الذي يستحقه علمه. فهو -بلا شكٍّ- من أعظم علماء الاجتماع والتاريخ في القرن التاسع عشر، ومع هذا فقد تحامل عليه الغَرْبِيُّونَ -وخاصة الفرَنْسِيِّينَ- لما ذكرناه.

الثاني: أنَّ القوة المادية والعلمية التي وصل إليها الغَرْبِيُّونَ في القرنين: الثامن عشر، والتاسع عشر، أدخلت في نفوس علمائهم وَمُؤَرِّخِيهِمْ وَكُتَّابِهِمْ قدرًا كبيرًا من الغرور، حتى اعتقدوا أنَّ الغَرْبِيِّينَ أصل جميع الحضارات في التاريخ -ما عدا المصرية- وَأَنَّ العقلية الغربية هي العقلية الوحيدة التي تستطيع أَنْ تفكِّر تفكيرًا منطقيًّا سليمًا، أما غيرهم من الشعوب -وخاصة الإسلامية- فَإِنَّ عقليتهم بسيطة ساذجة، أو بالأصح «ذرية»، كما عبر بذلك المستشرق «جب» في كتابه «وجهة الإسلام»، ويقصد بذلك أَنَّ العقلية

الإسلامية تدرك الأمور بواسطة الجزئيات، ولا تدركها إدراكًا كُلِيًّا. وهم لم يحكموا بذلك إلَّا على ضوء ما رَأَوْه بأعينهم من ضعف الشعوب التي استعمروها، وما سَادَهَا من جهلٍ، وما شملها من تأخرٍ في كل نواحي الحياة. فلما بدأ اتصالنا بالحضارة الغربية في أوائل هذا القرن، وانتشرت الثقافة بيننا، لم يجد المُتَفَّقُونَ –من غير علماء الشريعة– أمامهم طريقًا مُمَهَّدًا للحديث عن تراثنا المبعثر في كتبٍ قديمةٍ غير منظمةٍ تنظيمًا يتفق وتنظيم الكتب العلمية عند الغَرْبِيِّينَ، إلَّا كتب المُسْتَشْرِقِينَ الذين أفنَوْا أعمارهم في دراسة ثقافتنا، وتتبع مصادرها في خزائن الكتب العامة عندهم، حتى ليظل أحدهم عشرين عامًا في تأليف كتاب عن ناحيةٍ من نواحي ثقافتنا، يرجع فيه إلى كل ما وصلت إليه يده من مصادر قديمة من كتب علمائنا الأوَّلين.

وبهذا الدأب المتواصل عند علمائهم، والتفرغ الكامل له، والرغبة الاستعمارية والدينية التي ألمحت إليها، استطاعوا أَنْ ينظموا الحديث عن ثقافتنا تنظيمًا بهر أبصار (مُثَقَّفِينَا)، واستولى على ألبابهم، وخاصة عندما قارنوا بين أسلوبهم، وبين أسلوب كُتُبِنَا العلمية القديمة، فاندفعوا إلى الاقتباس من كُتُبِ المُسْتَشْرِقِينَ معجبين بعلمهم، وسَعة اطِّلاعهم، ظانِّين أنَّهم لا يقولون إلَّا الحق، وأنهم –فيما خالفوا فيه الحقائق المقررة عندنا– أصح حُكْمًا، وأصوب رأيًا؛ لأنهم يسيرون وفق منهجٍ عِلْمِيٍّ دقيقٍ لا يحيدون عنه.

ومن هنا نشأت الثقة ببحوث هؤلاء الغَرْبِيِّينَ، والاعتماد على آرائهم.

ولم يتح لهؤلاء المُتَفَّقِينَ أنْ يرجعوا إلى المصادر الإسلامية التي استقى منها المُسْتَشْرِقُونَ وغيرهم من الباحثين الغَرْبِيِّينَ؛ إما لصعوبة الرجوع إلى

مصادرنا، أو الرغبة في سرعة الإنتاج العِلْمِيِّ، أو لشهوة الإتيان بحقائق مخالفة لما هو سائد في أوساطنا العِلْمِيَّةِ وَالِّدِينِيَّةِ وغيرها.

وكانت فترة من الزمان طغى علينا هذا الشعور بالنقص والضعف، وعدم الثقة بأنفسنا إزاء الباحثين الغَرْبِيِّينَ، وإعظامهم، وإكبارهم، وعدم سوء الظنِّ بهم، حتى إذا بدأت حركات الوعي السياسي، وبدأ استقلالنا السياسي عن سيطرة الغَرْبِيِّينَ، ابتدأ عندنا الشعور بوجوب الاستقلال الفكري، الشعور بشخصيتنا، وقيمة حضارتنا، وتراثنا، الشعور بالخجل لموقفنا السابق من اتِّكالنا على المُسْتَشْرِقِينَ في معرفة ما عندنا من تراثٍ، وعقيدةٍ، وتشريعٍ، وانتشر هذا الوعي في أوساطنا المُثَقَّفَة من دِينِيَّةٍ، وتاريخيةٍ، وأدبيةٍ، وغيرها، فبدأنا نكتشف الحقيقة، حقيقة هؤلاء المُسْتَشْرِقِينَ في أبحاثهم، وأهدافهم الدِّينِيَّةِ، والاستعمارية من ورائها.

وما زلنا نسير في هذا الاتجاه الذي لم يستكمل قوته، واستقلاله الذاتي بعد؛ لأنها سُنَّةُ الله في الأشياء. ولكنَّا واصلون إلى هذه المرحلة -بإذن الله- حتى يأتيَ يوم يستغرب فيه أبناؤنا وأحفادنا كيف كنَّا بسطاء مخدوعين بهؤلاء المُسْتَشْرِقِينَ إلى هذا الحدِّ.

سيأتي يوم ننقلب فيه نحن إلى دراسة تراث الغَرْبِيِّينَ، ونقد ما عندهم من دينٍ، وعلومٍ، وحضارةٍ، وسيأتي اليوم الذي يستعمل فيه أبناؤنا وأحفادنا مقاييس النقد التي وضعها هؤلاء الغَرْبِيُّونَ، في نقد ما عند هؤلاء الغَرْبِيِّينَ أنفسهم من عقيدةٍ، وعلومٍ، فإذا هي أشد تهافتًا، وأكثر ضعفًا مِمَّا يلصقونه اليوم بعقيدتنا، وعلومنا.

تُرَى ماذا لو استعمل المسلمون معايير النقد العِلْمِيّ التي يستعملها المُسْتَشْرِقُونَ في نقد القرآن، والسُّنَّةِ، في نقد كتبهم المقدسة، وعلومهم الموروثة، ماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة، والعلوم التاريخية عندهم من قوة؟ وماذا يكون فيها من «ثبوت»؟.

تُرى ماذا لو استعمل المسلمون في المستقبل معايير النقد العِلْمِيّ التي يزعم المُسْتَشْرِقُونَ أنهم يأخذون بها عند نقد تاريخنا، وأئمتنا في نقد تاريخ هذه الحضارة، وَمُقَدَّسَاتِهَا، وفاتحيها، ورؤسائها، وعلمائها، أَلا يخرجون بنتيجة من الشكِّ، وسوء الظن، أكبر بكثيرٍ مِمَّا يخرج به المُسْتَشْرِقُونَ بالنسبة إلى حضارتنا، وعظمائنا؟ أَلا تبدو هذه الحضارة مُهَلْهَلَةً رَثَّةَ الثياب؟ وَأَلا يبدو رجال هذه الحضارة من علماء، وسياسيِّين، وأدباء، بصورةٍ باهتة اللون، لاَ أثر فيها لكرامةٍ، ولا خُلُقٍ، ولا ضمير؟.

كثيراً ما أتمنَّى أنْ يتفرَّغ منا رجال للكتابة عن هذه الحضارة، وتاريخ علمائها بنفس الأسلوب الذي يكتب به المُسْتَشْرِقُونَ من تتبّع الأخبار الساقطة، وفهم النصوص على غير حقيقتها، وقلب المحاسن إلى سيئات، والتشكيك في كل خيرٍ يصدر عن هؤلاء الغَرْبِيِّينَ، ولو حصل هذا لخرجت منه صورة لهذه الحضارة ولرجالها مضحكة مُخزية، ينكرها المُسْتَشْرِقُونَ قبل غيرهم، أترى أحدًا ينهض منا لهذا العبء، عبء استعمال المقاييس النقدية عند الغَرْبِيِّينَ، بالأسلوب الذي ذكرناه لإعطاء صورة عنهم، وعن عقائدهم، وعن حضارتهم؛ ليقرأها المُسْتَشْرِقُونَ بأنفسهم، فيرَوْا كيف عادت هذه الطريقة التي زعموا أنهم يستخدمونها لمعرفة «الحقيقة» في تاريخنا، ودِيننا، وَبَالًا عليهم، لعلَّهم يخجلون -بعدئذٍ- من استمرارهم في التحريف، والتضليل، والهدم!.

وبعد: فإنِّي أعتقد أنه قد انقضى ذلك العهد الذي كنا فيه نعتمد في مصادر معرفتنا بعلومنا، وتاريخنا، على هؤلاء الغَرْبِيِّينَ، مع أنهم ليست لهم مصادر إلاَّ كُتُبنَا، وَمُدَوَّنَاتِنَا، ولئن كنا بها جاهلين من قبل، فلقد آنَ الأوان أَنْ نرفع عن جِبَاهِنَا خِزْيَ الجهالة بمصادرنا، وَعَارِ الاتِّكال في فهمها على فهم الغرباء عن لغتنا، وَصِحَّةِ الاعتقاد بديننا ونبينا –صلوات الله وسلامه عليه–وعلمائنا ما يريد منا هؤلاء المُسْتَشْرِقُونَ المُتَعَصِّبُونَ أَنْ نعتقده في حق ديننا، ونبينا –صلى الله عليه وسلم– وعلمائنا من شكٍّ، وسوء ظنٍّ، ولقد آنَ الأوان أَنْ نفعل ذلك بما نَفَضْنَا عنه الغبار، ونشرناه من كنوزنا العلمية الدفينة، وبما ملأ نفوسنا من وعيٍ كريمٍ، وشعورٍ باستقلال الشخصية.

وإذا كنا نشتد هذه الشدة في حق المُحَرِّفِينَ، وَالمُضَلِّلِينَ، أمثال: جولدتسيهر، فإننا لا نغمط غيرهم من المُنْصِفِينَ حَقَّهُمْ في نشر نفائس كتبنا القديمة، ودأبهم في البحث عن الحقيقة، فليس العلم محتكرًا لأُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ.

والإسلام، وهو دين الله للعالم كلِّه، لا يمكن أَنْ يستأثر بفهمه قومٌ دون قومٍ، فليفهم منه من شاء ما شاء، بشرط أَنْ يَتَحَلَّى بصفة العلماء، وهي الإنصاف، والإخلاص للحق، وَالبُعْدِ عن العصبية، والهوى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- **أحمد سمايلوفيتش**، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة، مطبعة دار المعارف، ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م.
- **أحمد عبد الحميد غراب**، رؤية إسلامية للاستشراق، ط:٢، المنتدى الإسلامي، ١٤١١هـ.
- **أحمد عبد الرحيم السايح**، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م.
- **آصف حسين**، المسار الفكري للاستشراق، ترجمة: مازن مطبقاني، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السابع، ربيع الثاني ١٤١٣هـ.
- **الجوهري**، مختار الصحاح، تحقيق: الأستاذ/ أحمد عبد الغفور عطا، ط: دار العلم للملايين.
- **ساسي سالم الحاج**، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مركز دراسات العالم الإسلامي، ١٩٩١م.
- **سعيد عبد الفتاح عاشور**، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٧م.
- **السيد محمد الشاهد**، الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين في الاجتهاد، عدد (٢٢) السنة السادسة، شتاء عام ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.
- **عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي**، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير- الاستشراق- الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه

(ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري)، دار القلم- دمشق، الطبعة الثامنة، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.

- **عبد اللطيف الطيباوي**، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، دراسة نقدية، ترجمة وتقديم: قاسم السامرائي، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، ١٤١١هـ= ١٩٩١م.
- **علي بن إبراهيم الحمد النملة:**

١- الاستشراق في الأدبيات العربية، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.

٢- الاستشراق في خدمة التنصير واليهودية- مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- ع٣ (رجب ١٤١٠هـ، فبراير ١٩٩٠م).

٣- مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٢هـ.

٤- المستشرقون والتنصير: دراسة للعلاقة بين ظاهرتين، مع نماذج من المستشرقين المنصرين- الرياض، مكتبة التوبة، ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م.

- **علي حسني الخربوطلي**، المستشرقون والتاريخ الإسلامي- القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (سلسلة تاريخ المصريين ١٥)، ١٩٨٨م.
- **فالح بن محمد بن فالح الصغيّر**، الاستشراق وموقفه من السنة النبوية.
- **قاسم السامرائي**، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض، دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.

- **مازن بن صلاح مطبقاني**، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦هـ= ١٩٩٥م.
- **مجد الدين الفيروزآبادي**، القاموس المحيط ٤ مج- القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه، د. ت.
- **محمد عزت إسماعيل الطهطاوي**، التبشير والاستشراق، أحقاد على النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وبلاد الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٤١١هـ= ١٩٩١م.
- **محمد محمد حسين:**

١- الإسلام والحضارة الغربية، الطبعة الخامسة (بيروت، ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م).

٢- حصوننا مهددة من داخلها في وكر الهدامين، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ= ١٩٧٨م.

- **محمود حمدي زقزوق:**

١- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط: ٢- القاهرة، دار المنار، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م.

٢- الإسلام والاستشراق، تأليف: نخبة من العلماء المسلمين، جدة، عالم المعرفة، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.

- **مصطفى السباعي:**

١- الاستشراق والمستشرقون أهداف الاستشراق ووسائله، مقال منشور على موقع مقالات الألوكة، رقم المقالة (٣٧٠).

٢- الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، دار الوراق للنشر والتوزيع- المكتب الإسلامي.

- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة،** إشراف وتخطيط ومراجعة: د/ مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ.
- **نجيب العقيقي،** المستشرقون، ط: ٤، القاهرة، دار المعارف، (١٩٨٠م).

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	ملخص البحث	
٢	المقدمة	
٣	تمهيد «مفهوم الاستشراق»	
٤	**المبحث الأول:** تاريخ الاستشراق وتطوره	
٥	**المبحث الثاني:** دوافع المستشرقين	
٦	الهدف الديني	
٧	الدافع الاستعماري	
٨	الدافع الاقتصادي	
٩	الدافع السياسي	
١٠	الدافع الثقافي العلمي	
١١	الخاتمة	
١٢	المصادر والمراجع	
١٣	فهرس الموضوعات	